MONGOLIA
Ulaanbaatar
GOBI DESERT
INNER MONGOLIA
HEILONGJIANG
JILIN
LIAONING
NORTH KOREA
Pyongyang
Seoul
SOUTH KOREA
Sea of Japan
JAPAN
Yellow Sea
Beijing
Tianjin
HEBEI
SHANXI
SHANDONG
Yellow R.
Hexi Corridor
Liqian
Minqin
Wuwei
Rte. 312
NINGXIA
Great Wall
Yan'an
Hua Shan (Flowery Mt.)
Tomb of China's First Emperor
Lanzhou
Linxia
Xiahe
GANSU
Pingliang
Shuangzhao
Xi'an
HENAN
Zhengzhou
Shangcai
JIANGSU
Nanjing
Wugang
Hefei
Zhenjiang
Suzhou
Kunshan
Shanghai
SHAANXI
Nanyang
Xinyang
ANHUI
Yangtze R.
HUBEI
Wuhan
Chengdu
SICHUAN
Chongqing
Hangzhou
ZHEJIANG
East China Sea
Changsha
HUNAN
JIANGXI
GUIZHOU
FUJIAN
Fuzhou
Taipei
TAIWAN
Kunming
YUNNAN
GUANGXI
GUANGDONG
Guangzhou (Canton)
Macau
Hong Kong
VIETNAM
Hanoi
South China Sea
LAOS
HAINAN
PHILIPPINES
0
400 miles
0
400 kilometers

RUSSIA
KAZAKHSTAN
ALTAI MOUNTAINS
Sayram Lake
Rte. 312
Kuitun
Tianchi
(Lake of Heaven)
Korgas
Yining
Old Silk Road
KYRGYZSTAN
Urumqi
Turpan
Bezeklik Caves
TIAN SHAN
(Mountains of Heaven)
Rte. 312
Hami
Huoyan Shan
(Flaming Mts.)
Korla
Kashgar
TAJIKI-
STAN
XINJIANG
Loulan
Lop
Nor
Xingxingxia
Liuyuan
Jiayuguan
GO
TAKLIMAKAN DESERT
Miran
Dunhuang
Anxi
GANSU
Jiuquan
Yarkand
AFGHANISTAN
Khotan
The Caves of a
Thousand Buddhas
Zhangye
Qilian Mts.
KUNLUN MOUNTAINS
QINGHAI
Islamabad
Golmud
PAKISTAN
TIBETAN PLATEAU
Yellow R.
XIZANG
(TIBET)
New Delhi
Lhasa
Yangtze R.
NEPAL
BHUTAN
INDIA
BANGLA-
DESH
MYANMAR
(BURMA)
Bay of Bengal
THAILAND
Map © Copyright 2007
David Lindroth Inc.

مقدمة:

الطريق الأم

ينطلق الطريق البالي الأسود كالسهم عبر صحراء مفتوحة انفتاحاً واسعاً حتى يحط ويرتطم في جرف منحدر منخفض من الصخور، التي ترتفع من المنظر الطبيعي القمري من أرض صحراء غوبي الصفراء المغطاة بالنباتات البرية والشجيرات الكثيفة القصيرة. وهذه الصخور الخشنة تشكل وادياً ضيقاً يحيط بالطريق بعد قليل من كل الجهات وهو ينعطف لأول مرة في مئات الأميال، ثم يلقي بالمسافر في بلدة صغيرة لم تكن مرئية من الطريق العام. ويعطي الوادي اسمه للبلدة، وهو شينغشينغشيا، ويعني وادي النجوم.

وادي النجوم بلدة حصانين*، واسعة الشوارع، والمقيمون فيها بضع مئات فقط. وهي تقدم التموين والخدمات لأصحاب الشاحنات، ولسيارات ركاب المسافات الطويلة، ومن حين إلى آخر لمسافر مجنون يختار أن يعبر صحراء غوبي براً على هذه الطريق. وتدين البلدة في وجودها لبئر صغيرة من الماء العذب، وهي البئر الوحيدة لعدة أميال في محيطها، وقد استطاعت أن تمون الإنسان والحيوان طوال قرون في رحلاتهم على طول هذا القسم الذي لا يعرف الرحمة من طريق الحرير القديم. وبلدة شينغشينغشيا تؤشر إلى دخول المسافر إلى ما كان يسمى عادة تركستان ولكنه الآن المنطقة الصينية شينكيانغ. والوادي الواقع إلى الشرق منها وبوابة الرسوم الضخمة الواقعة إلى الغرب منها يوفران الدعامة لهذا الموقف الرث المشوش للشاحنات، ولمساكن المقيمين، ولمحطة البنزين الوحيدة الكبيرة التي تظهر من أرض الصحراء المحروقة وتعلو إلى سماء بلد في آسيا الوسطى زرقاء صافية. والشمس المعادية عالية، تذيب زفت الطريق تقريباً، وأنا واقف إلى جانب الطريق، أحاول أن أتطفل لأتدبر ركوباً مجانياً في الرحلة في السيارات المارة في الطريق العام.

* كناية عن سعة الشوارع التي تسير فيها عربة يجرها حصانان بالمقارنة ببلدات لا تسير في شوارعها إلا عربات يجرها حصان واحد. (المترجم)

وهذا الطريق ليس مجرد أي طريق قديم. فهو الطريق الأم للصين، واسمه هو الطريق 312. لقد كنت أرتحل بسيارات الركاب، والشاحنات، وسيارات الأجرة على طول كل هذا الطريق من بدايته في شنغهاي، وهي على بعد ألفي ميل إلى الشرق من هنا تقريباً. وفي المدينة القديمة شيان، يجتمع الطريق الأم مع مسار طريق الحرير القديم، الذي كان في الأزمنة القديمة يسير عبر صحراء غوبي، وعبر وادي النجوم، إلى آسيا الوسطى، وباتجاه الغرب إلى بلاد فارس وإلى أوروبة. وأنا الآن في حوالي الثلثين من الطريق على طول رحلتي التي تبلغ ثلاثة آلاف ميل، وبقي منها ألف ميل لأركب وأصل إلى نهاية الطريق، الواقعة عند حدود الصين مع كازاخستان.

أنا غير حليق ومحترق من شمس الصحراء الشديدة، ومرهق ولكنني مبتهج، بعد ستة أسابيع من السفر، ومرهق ولكنني مازلت أتمتع بحيوية بعد ستة أعوام من العيش في الصين صحافياً. وهذه هي آخر رحلة لي عبر البلاد قبل أن أغادرها وأنتقل إلى أوروبة.

كانت مجموعة من سائقي الشاحنات قد اجتمعت عند محطة البنزين لتتبادل أطراف الحديث. وكنت أتجول حول المكان لأرى إن كان أي واحد منهم سيمنحني ركوباً معه إلى الغرب. وقد سرَت بينهم كلمة تقول إن هناك، على الطريق 312 أمامهم تماماً، دورية سيارات من المركز الصغير لشرطة وادي النجوم تجلس، وتنتظر. وجميعهم محملون حمولة زائدة وسوف يغرمون إذا أوقفتهم الدورية. ونحن نقف ونتبادل حديثاً قصيراً لمدة عشر دقائق. ومعظمهم حذرون بشأن منح الركوب لرجل غربي. وأخيراً، تأتي الكلمة وتنتشر بأن سيارة الشرطة قد ذهبت، وتتفرق الجماعة، ويتوجه كل سائق إلى شاحنته الخاصة. وأنا متروك واقفاً حتى نظر إلي واحد منهم، وبهزة قصيرة من يده، يؤشر لي لأتوجه نحو شاحنته. وأنا أتبعه، وأقفز إلى مقصورة السائق. ويشعل محركه، ويدرج الوحش الأزرق الكبير على الطريق وإلى الخارج في صحراء غوبي الذهبية القاحلة.

وأسأله: «من أين قدمت ؟»

«شنغهاي».

«وإلى أين أنت متجه؟»

«أورومجي».

«ما هذا الشيء الضخم المحمول على ظهر شاحنتك؟»

«إنه مرشح صناعي، ذاهب إلى شركة في أورومجي. وفي الأسبوع الماضي كنت أسوق سيارتي من أورومجي إلى شنغهاي، مع شاحنة محملة بالبطيخ».

إنه تبادل له رمزيته. المنتجات الطازجة تنساب شرقاً من أجل المستهلكين في مدن الصين الساحلية. والمعدات الصناعية تنساب غرباً للمساعدة في بناء أقل المناطق تطوراً في داخل البلاد.

أورومجي هي عاصمة شينكيانغ، قلب آسيا الوسطى، وهي أبعد مدينة في العالم عن البحر المحيط.

واسم السائق ليو شانغ. وهو يسافر جيئة وذهاباً على طول الطريق 312 من شينكيانغ إلى شنغهاي في كل العام، ويسوق بالتناوب ليل نهار مع زميله، وانغ، الذي يرقد نائماً على السرير الضيق الموضوع خلف مقاعدنا. جميع الشاحنات فيها سائقان، كي يستطيعا السفر أربعة وعشرين ساعة في اليوم، ولكيلا يتوقفا إلا حين يحتاجان إلى استخدام مواقف الاستراحة الموجودة على طول الطريق الممتدة ثلاثة آلاف ميل.

وأساله: «كيف الحياة بصفتك سائق شاحنة في هذه الأيام؟ هل تستطيع كسب المال؟»

«إنها صعبة» فهو يتفجع، وهو يشعل الأولى من سجائر عديدة ويرمي بولاعته على لوحة أجهزة القياس أمامه. «يجب علينا أن نحمل حمولة زائدة على شاحناتنا لنكسب أي مال، ولكن الشرطة تكمن وتنتظر وتغرمنا».

ويدخن سلسلة لا تنقطع من السجائر وهو يسوق ويتحدث بسلسلة من الكلام بشكل متقطع كمن ينقر نقراً.

«يُدفع لي ثمانية عشر ألف يوان (حوالي 2.200 دولار)لآخذ حملاً من أورومجي إلى شنغهاي أو عائداً ثانية. وعلي أن أدفع حوالي خمسة عشر ألف يوان رسوماً، وتكاليف، وغرامات للشرطة. وهكذا فأنا أكسب، من رحلة أسبوع واحد، حوالي ثلاثة آلاف يوان (وهي تقريباً 380دولاراً).

وأقول: «ذلك دخل ليس سيئاً». والعديد من الصينيين لا يكسبون ذلك في شهر.

«نعم، ولكن هناك البلى في استعمال شاحنتي، وإنهاك لي أنا. ويدفع لي أقل لأن التنافس يزداد. إضافة إلى حقيقة أن غرامات الشرطة ترتفع باستمرار».

لا أستطيع أن أفكر في رفيق سفر أفضل. فليو هو ذلك المزيج الرائع من التواضع ومن إظهار الشجاعة التي تميز الكثير من الرجال الصينيين. وجسمه مبني مثل جسم ملاكم، وهو قصير وذو عضل، وعلى الرغم من أنه لم يتلق من التعليم إلا إلى مستوى المدرسة المتوسطة، فهو قسم فلسفة من رجل واحد، وله رأي في كل شيء. في دقيقة يتفجع من الانحطاط الأخلاقي للصين، وفي الدقيقة التالية يخبرني عن بيوت الساقطات الموجودة على جانب الطريق التي يزورها على طول الطريق. إنه نابض حلزوني في قوة طاقته، مع الضحك والغضب ينفجران في مقادير متساوية. الضحك على الحياة نفسها تماماً، في كل جنونها الصيني الحديث. والغضب في معظمه على مسؤولي الحزب الشيوعي الفاسدين وعلى رجال الشرطة. فهو، مثل الكثيرين جداً من الناس العصريين من الصينيين، ممزق بين حب عميق لبلاده وبين غضب عميق على الناس الذين يحكمونها.

ونسافر طوال ساعات عبر غوبي التي لا ترحم، متحدثين حديثاً شديداً في البداية، ولكن مع فترات طويلة من الصمت تسود بعدئذ، وهو يسوق في أثنائها فقط، وأنا أجلس فقط، ووانغ يشخر فقط خلفنا في السرير. والجمال الطبيعي للصحراء، الصحراء الشَّموس التي لا تُسترضى، التي كان من عادة عواصفها الرملية الشرسة أن تبتلع قوافل كاملة من الجمال وحمولاتها الثمينة، الصحراء التي لا سبيل إلى إطفاء أوارها وكان من عادتها أن تقاوم الجميع باستثناء أشد المسافرين صبراً على المشاق والجهد، الجمال الطبيعي للصحراء ينبسط ماراً في الخارج.

وعلى الرغم من أنها ما زالت قفراً، يجري الآن قهرها ببطء بجيش من الشاحنات الزرقاء الصينية الصنع من نوع ريح الشرق. ومع ازدياد النشاط على الطرق مثل الطريق 312 حتى صارت أكثر انشغالاً، وحتى صارت المدن البعيدة مثل مدينة أورومجي أقرب إلى المراكز الرئيسية للسكان الواقعة على مسافات أبعد إلى الشرق، تبدو الصحراء أقل خطراً بقليل الآن. ومن حين إلى آخر تقابلنا وتمر بنا شاحنة بهسيسها في الاتجاه المعاكس، فتهزنا بالتيار الهوائي المنبعث عن مرورها. وتندفع سيارات الركاب مارة بنا كذلك، وسيارات من حين إلى آخر، ولكنها لم تكن كثيرة.

يتحدث ليو شيانغ عن التطورات التي يراها في كل يوم، وعن تحول بلاد تغيرت بتخفيف الضوابط الحكومية وإرخائها، وبتدفق المال الأجنبي، وبأهم من ذلك جميعاً بحركة الناس غير المرتبطين بماضيهم الشيوعي. ولكن الحراك والحرية الأكبر غيرا طبائع الناس، كما يقول، ولكن ليس إلى الأفضل دائماً.

ويقول ليو: «في الماضي، كان كل واحد فقيراً، ولكن كل واحد كان مستقيم الأخلاق. والآن، كل واحد أكثر حرية، ولكن هناك فوضى. المال جعل كل شخص فاسداً». وهو يستخدم التعبير الصيني، وهو تعبير أوضح مئة مرة من مكافئه الإنجليزي الحاد كالأنياب، ويقول: «إن الإنسان الآن هو الذي يأكل الإنسان».

هذا كتاب عن الناس من أمثال ليو شيانغ، عن الناس العاديين من الصينيين وقد علِقوا في لحظة غير عادية في الزمان. فالصين في مطلع القرن الحادي والعشرين هي، فوق كل الأشياء، أمة في حالة حركة، والملايين من الناس من الريفيين يغادرون قراهم ويتوجهون إلى المدن، يبحثون عن العمل. والكثيرون من الناس ما زالوا يسافرون بالقطار، ولكن الناس يسافرون براً بشكل متزايد. ومن الصعب قياس الأرقام الدقيقة، ولكن معظم الخبراء يقدرون أن 150 مليوناً من الناس (ويحتمل أن يكون الرقم 200 مليون) قد غادروا قراهم الوطن للبحث عن العمل في المدن في كل أنحاء الصين. إنها أضخم هجرة في التاريخ الإنساني.

هذا الجيش من المهاجرين، وقد دفعه الفقر السرمدي في الريف وجذبته الأنوار المتألقة في المدن، هو الجيش الذي يقدم الوقود للازدهار الاقتصادي الذي يضع الدمى الرخيصة، والملابس الرخيصة، وشاشات التلفاز المسطحة الرخيصة، والحواسيب الرخيصة على أرفف متاجر العالم.

يُعرف عامة الناس في الصين، الريفيون منهم والحضر على حد سواء، في اللغة العامية بأنهم حرفياً «الأسماء المئة القديمة»، وهم الذين كانوا حسب الأسطورة الصينية مكونين من مائة اسم للعائلات لا غير. وحياة الأسماء المائة القديمة اليوم يجري تحويلها كما لم يحدث من قبل في التاريخ الصيني أبداً.

بعد خمسة آلاف سنة من الحضارة المستمرة، وبعد القرون التي كانت فيها الصين أول قوة اقتصادية في العالم، أُخرجت الصين فجأة من عزلتها الإمبراطورية بوصول المستعمرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر. بعد ذلك، بعد قرن من الإذلال على أيدي القوى الأوروبية واليابان، تبنت الصين الماركسية المقاتلة، التي طردت الإمبراطوريين المستعمرين (الإمبرياليين) وانتزعت البلاد من ماضيها الذي أضفى عليه الزمان جلالاً وانتزعتها من تقاليدها القديمة. وبعد العام 1949، انطلق الحزب الشيوعي ليعيد صياغة الروح الصينية ونجح في تغيير الكثير في المجتمع الصيني. ولكن الروح العسكرية للرئيس ماو في النهاية دمرت البلاد تقريباً، وأخفقت التجربة الشيوعية. وبموت ماو في العام 1976، انطلق القادة الجدد للصين في التخلي عن النموذج الاقتصادي الماركسي بالسرعة التي كانوا قد تبنوه فيها.

والآن، بعد ثلاثين عاماً من إصلاحات السوق منذ العام 1978، تقف الصين في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين على حافة شيء ما كبير جداً، شيء ما مختلف جداً عن أي شيء مضى من قبل. إنها رأسمالية فريدة من نوع «الإنسان يأكل الإنسان» (وما زالت تعرف رسمياً باسم «الاشتراكية بخصائص صينية») جلبت تغييراً غير مسبوق لمجتمعها. الصين أدركت بريطانيا بوصفها رابع أضخم اقتصاد في العالم، وراكمت احتياطيات من القطع الأجنبي تساوي تقريباً تريليون دولار وصارت ورشة العالم. وإن توقها إلى الطاقة وإلى الموارد يؤثر في أسواق العالم في النفط وفي السلع.

ومن الناحية الدبلوماسية فهي تتنامى في الأهمية أيضاً، مع سياسة خارجية ملتزمة بقضيتها تحكمها الذرائعية بدلاً من الإيديولوجية. وباختصار، إن الصين مهمة أكثر مما كانت في السابق مهمة في كل الأوقات في الأزمنة الحديثة. وكثيرون يأخذون الأمر قضية مسلماً بها وهو أن الصين سوف تكون هي القوة العظمى الكونية القادمة.

ولكنك إذا نظرت عن قرب أكثر قليلاً، فسوف ترى أن خطوط التصدع الخطرة تظهر أيضاً، خطوط التصدع التي توحي أن البلاد قد لا تكون مستقرة مثلما تبدو، وأن صعود الصين الذي يجري التبجح به كثيراً قد لا يكون سلساً مثلما يتخيل كثيرون. وإن رحلة باتجاه الغرب على طول الطريق 312 هي رحلة إلى مواطن الضعف في الصين. هناك فجوة متنامية بين الحضر الأغنياء والريفيين الفقراء، وهذا ما أدى إلى الكثير من حوادث الاضطراب في المناطق الريفية. وقد انهارت شبكة الأمان القديمة من الرعاية الصحية المجانية ومن التموين الذي تقدمه الدولة من المهد إلى اللحد، وهذا قد ترك الكثيرين من الناس في حال أسوأ بكثير مما كانوا عليه من قبل. وإضافة إلى ذلك، فإن نمو الصين الانفجاري قد دمر البيئة، فست عشرة مدينة من المدن العشرين التي تعد أكثر المدن تلوثاً في العالم تقع في الصين. وهناك مشكلة مزمنة من نقص الماء، والعديد من أنهار البلاد ملوثة تلوثاً خطراً. وعلى قمة كل ذلك، فإن كل المجتمع مرهق بالفساد من أوله إلى آخره، وهو تركة دولة الحزب الواحد الذي لن ينفذ الإصلاح السياسي وبالتالي فهو لا يملك الزواجر والضوابط التي تطبق على مسؤولية أصحاب السلطة المطلقة.

ومعظم الغربيين، ومنهم الذين يفكرون بشأن الصين أيضاً، لا يبدو أنهم ينظرون في إمكانية أن تؤدي الضغوط التي تتعاظم هناك إلى انفجار نحو الداخل وفق الأسلوب السوفييتي. ولكنني أعتقد أن على الغرب أن يبذل المزيد من الانتباه الموجه إلى مشكلات الصين، وذلك لأن من الممكن إلى حد كبير أن يكون هناك لحظة حرجة قادمة في الصين. وكلما تعامل الحزب الشيوعي الآن مع مشكلاته الاجتماعية والسياسية تعاملاً أقل، كانت اللحظة الحرجة أكبر إن جاءت. فمجتمع الصين المتحرك في القرن الحادي والعشرين يتململ غاضباً أكثر فأكثر ضد نظامه السياسي

الستاليني المتصلب. وإذا لم تفعل الحكومة في بكين المزيد لمعالجة مشكلات عدم المساواة المتنامية والمشكلات البيئية التي تلوح نذرها للعيان، فأنا أعتقد أن الصين يمكن أن تكون في اضطراب حقيقي.

وهكذا فحين كنت أعد للانطلاق على طول الطريق 312، كان هناك سؤال واحد كبير في ذهني: أيهما سيكون للصين، العظمة أم الانفجار إلى الداخل؟ أتستطيع البلاد فعلاً أن تصير القوة العظمى في القرن الحادي والعشرين التي يتنبأ بها كثيرون؟ أم أنها ستنهار كلها، مثل الاتحاد السوفييتي،تنوء بمواريث الماضي المقعدة، وتغرق من تناقضات الحاضر المفكِّكة؟ وإذا ذهبت الصين فعلاً إلى العظمة، فأي نوع من البلاد ستكون؟ هل ستقدر مطلقاً على التحول إلى دولة حديثة، مع وجود الزواجر والضوابط الموضوعة على سلطة الحكومة؟

خطتي هي أن أجيب عن هذه الأسئلة في أثناء سفري على طول الطريق 312، وفي أثناء مقابلاتي مع سائقي الشاحنات والساقطات، وسكان المدن والضواحي من ذوي المهن التي تدر دخلاً جيداً، والفنانين، والفلاحين وباعة الهاتف الجوال الذين تعكس حياتهم تعقيد الصين الحديثة. وفي الوقت الذي أحاول فيه أن أجيب عن أسئلتي حول مستقبل الصين، آمل أن أذهب في طريق ما للإجابة عن بعض الأسئلة المهمة على نحو مساو حول حاضر الصين اليوم: من بالضبط الشعب الصيني؟ وماذا فعل كل هذا التغيير الشديد الأثر في النفس الصينية، وللروح الصينية؟ إن منظر أرض الصين الطبيعي المادي يتغير في الوقت الذي تنقلب فيه البلاد رأساً على عقب بفعل التطور. ولكن هكذا يتغير أيضاً منظرها النفسي، وعالمها الأخلاقي، أي، ما يفكر فيه الناس، وما يؤمن به الناس. بالنسبة إلى الغرب، كان هناك أكثر من مائة عام من أجل أن يستقر غبار الثورة الصناعية من قبل أن تظهر الثورة التقانية وتتقدم. في الصين، الثورتان تحدثان في وقت واحد. والإزاحة أو الاقتلاع من الجذور، المادية والنفسية، هائلة وهي تمزق نسيج المجتمع، في الوقت الذي تقوم فيه الطرق الجديدة وسكك الحديد، مع ذلك، بشبك البلاد معاً على نحو أكثر قرباً.

وعلى الرغم من كل التغيير في الصين، ما زال العالم الغربي متمسكاً برأيه المتقادم العهد بشكل خطر، والذي يرى البلاد بالأبيض والأسود، والذي يتعثر فوق

مبالغات صيغ التفضيل العليا التي تحبس الأنفاس الخاصة به عن النمو والتقدم غير المسبوقين، أو التراجع إلى أنماط الحرب الباردة القديمة وعن التحذيرات من «خطر الصين». والصور التي يتخيلها الغربيون عن الشعب الصيني هي أيضاً متقادمة العهد. فقد كان الصينيون دائماً جماهير غفلاً لا وجه لها في الذهن الغربي. وسواء كانوا هم الحمالين بضفيرة شعر مسترسلة من القفا على الظهر من الستينيات من 1860 أو الحرس الماوي الأحمر من الستينيات من 1960، فإن الغرب لم يرهم أبداً أفراداً. والآن، فإن الفردية تبرز في الصين، مع ذلك، في الوقت الذي يتولى فيه الشعب القيام بالمزيد من السيطرة على حياته الخاصة. فالشعب الصيني، وخصوصاً في المدن، يملك خيارات، وهذه الخيارات تخلق جيلاً كاملاً جديداً غير معروف لكثير من الناس في الغرب. هؤلاء الناس هم الذين أريد أن أقابلهم، الأفراد، والشعب الصيني الجديد الذي يبني الصين الجديدة، والتنويعة الهائلة من الناس الذين يعيشون ويعملون ويسافرون على طول طريق صيني واحد.

ومغامرتي على طول الطريق 312 هي أيضاً نهاية فصل في حياتي الخاصة. فأنا بريطاني تخصصت بالدراسات الصينية في كلية في إنجلترا في الثمانينيات من 1980. وجئت لأول مرة إلى الصين وأنا طالب في العشرين من العمر في العام 1987، لأقضي عامي الثاني الجامعي دارساً للغة الصينية في بكين. وبعد التخرج، صرت صحافياً وقضيت الكثير من التسعينيات من 1990 مراسلاً عن القضايا الآسيوية. وفي أحدث عمل لي أقمت في بكين لمدة ست سنوات، بصفتي مراسل الصين للراديو الوطني العام. والآن أنا أغادر الصين، وفي غضون أشهر قليلة سأتوجه إلى أوروبة، لأكون مراسل الراديو الوطني العام في لندن. كان بإمكاني أن أمكث لمدة أطول، ولكن ست سنوات بدت هي المدة الزمنية الصحيحة تقريباً لمنصب صحافي في مكان واحد، وقد اخترت أن أغادر في الوقت الذي مازلت فيه أستمتع بالصحبة. طوال عشرين عاماً، انضفرت حياتي مع الصين، وخبراتي هنا شكلت شخصي الذي صرت عليه، على الرغم من أنها، بالنسبة إلي الآن، قد انتهت تقريباً. ورحلة هذه الطريق هي وسيلة لأقول وداعاً.

وكنت قد سافرت لأول مرة على قطعة من الطريق 312، من دون معرفته، في العام السابق، وذلك في الوقت الذي كنت أقوم فيه بعمل المراسلة الصحفية في براري مقاطعة غانسو، وهي ليست بعيدة جداً عن وادي النجوم. وقد علَّقت على الطريق مع مرافقي في السفر وقلت كم كان طريقاً جيداً لمثل هذه المنطقة النائية، فأخبرني أن الطريق يسير على طول المسافة من شنغهاي إلى كازاخستان.

وحفظت الفكرة في ذهني، منتظراً الوقت المناسب لأقوم بالرحلة، والآن جاء ذلك الوقت. وكنت قد حزمت أمتعة بيتنا في بكين وودعت زوجتي وأطفالي إلى المطار. وطاروا إلى لندن قبلي، للانتقال إلى بيت جديد وإقامة حياتنا الجديدة. ولدَيَّ الآن الصيف ممتداً أمامي، شهران لاستكشاف الصين في كل تناقضاتها، قبل أن أصعد أنا نفسي إلى طائرة متوجهاً إلى لندن وأغادر الصين كلها خلفي.

يسحب ليو شيانغ نفَسه من سيجارة أخرى.

ويقول مع تكشيرة، وهو يعكس رأياً واسع الانتشار بين الشعب الصيني، ويتناقض مع الصورة الصاعدة عن البلاد في الغرب: «الصين ضعيفة، ونحن نحتاج إلى عقود وعقود قبل أن نستطيع أن نُدعى بلاداً قوية، قبل أن نستطيع أن نتنافس مع أمريكا».

وأنا أقول له: «ولكن الصين قد صارت بلاداً مختلفة تماماً عما كانت عليه منذ عشرة أعوام».

ويقول ليو: «ذلك صحيح. ولكن لا تهتم بما كانت عليه منذ عشر سنوات مضت، مقارنة بما كانت عليه منذ خمس سنوات، إنها بلاد مختلفة. ولكننا ما زلنا في الخلف على بعد مسافة طويلة».

زميل ليو، وانغ، كان قد استيقظ الآن وهو يجلس خلفنا على سريره. سيكون بعد قليل دوره ليتولى السياقة، وأما ليو فسيأخذ غفوة. وسوف ينزلانني في المخرج الذي يؤدي إلى المدينة الواحة، مدينة هامي.

وأنا أسأل ليو إن كان يعتقد أن الصين تستطيع أن تقوم بالتحول من دولة حزب واحد إلى ديمقراطية.

ويقول بلا تردد: «لا، لا أعتقد أن الصين تستطيع أن تصير ديمقراطية في أي وقت. انظر إلى التاريخ الصيني. كان هناك دائماً تغييرات في الحكومة، ولكنه تاريخ إمبراطور واحد فقط يجري استبدال آخر به. النظام لا يتغير أبداً، الناس الموجودون على القمة فقط يتغيرون. ذلك هو كيف تكون الصين».

وأسأله: «وماذا سيحدث إذاً؟»

ويقول، وهو يهز كتفيه، ويرفع صوته فوق صوت الريح التي تندفع من خلال النوافذ المفتوحة في الشاحنة: «لا أعرف، نحن الأسماء المائة القديمة، لا نعرف عن هذه الأنواع من الأشياء. ولكنني أعرف أن الصين لن تصير أبداً مثل بلادكم».

وبعد قليل من ذلك، نصل إلى مخرج مدينة هامي. وأصافح السائقين، وأشكرهما على الركوب، وأقفز نازلاً إلى الزفت الباهت القذر الأسود. وأقف على قارعة الطريق أبحث عن سيارة أخرى تمنحني ركوباً إلى هامي، وكلمات ليو شيانغ مازالت ترن في أذني. وأنا أراقبه وهو يدير شاحنته الكبيرة الزرقاء من نوع ريح الشرق وتتصاعد سرعته ببطء مبتعداً عبر الصحراء.

طـريـق الصـين

1
الأرض الموعودة

قطار التعويم المغناطيسي الذي يربط مطار شنغهاي اللامع الجديد، مطار بودونغ، مع مركز المدينة ينساب خارجاً من محطة المطار، وفي غضون دقيقتين تقريباً وصل إلى سرعة 270 ميلاً في الساعة. وتلمع لوحات الإعلانات مارة بسرعة تجعلها غير قابلة للقراءة تقريباً. والقطار معلق مغناطيسياً على طول سكة تسير على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض، وهو يحصد الأرض نحو مركز أحدث مدينة في الصين. المناظر الطبيعية الأرضية أمريكية على نحو مدهش ـ منبسطة، ومنخفضة مرتفعة، ومبنية حديثاً. ويميل القطار الطلقة الرمادية ميلاً كسولاً نحو اليسار وهو ينطلق فوق واحدة من الطرق الحرة الرئيسية في بودونغ، ويمر بالأسواق الكبيرة (السوبر ماركت) كالكهوف وبصفوف من مجمعات بناء الشقق المصقولة الجديدة الزهرية والبيضاء.

قطار التعويم المغناطيسي، كما هو معروف، كلف 1.2 بليون دولار لبنائه وهو أول قطار من نوعه في العالم يشغل تجارياً.

قبل ستة أسابيع من وصولي إلى بلدة وادي النجوم (ستاري غورج) وصحراء غوبي، كنت قد وصلت بالطائرة إلى شنغهاي قادماً من بكين لأبدأ رحلتي البرية لمسافة ثلاثة آلاف ميل على الطريق 312. وكنت حتى الآن أكثر انشغالاً من أن أقوم بعمل العديد من التحضيرات ولم أملك إلا فكرة باهتة عمن قد أتحدث إليهم حين أصل إلى هنا.

ورحلة قطار التعويم المغناطيسي، وهي لمسافة عشرين ميلاً، كانت قد انتهت تقريباً قبل أن تكون قد بدأت. فالقطار يخفف بهدوء وهو يدخل المحطة النهائية، وهي ليست بعيدة عن الغابة الجديدة من المباني التي ترتفع عالية التي تكوّن مركز مدينة شنغهاي التجاري. وانظر إلى ساعة يدي وأنا أرفع حقيبة ظهري وأطرحها في

الخارج على المنصة. وأقول باللغة الصينية، وأنا أومئ إلى جابية التذاكر المرأة التي تلبس لباساً أنيقاً وتقف إلى جانب الباب: «ليس سيئاً. ثماني دقائق».

وترد من دون تبسم، «سبع دقائق وعشرون ثانية».

الشوارع في خارج المحطة النهائية خليط متنافر من الضجة والحركة. وهناك إحساس في شنغهاي غير ملموس، هو الاستعجال، أمل وتفاؤل يتعلقان في الهواء حولك من كل الجهات ابتداءً من الدقيقة التي تصل فيها. الناس يدفعون إلى الأمام، بأقدامهم، وفي رؤوسهم، يبنون مستقبلاً، ويبنون بلداً، ويتحركون نحو غاية ما بعيدة غير مرئية.

وكنت قد اخترت أن أقيم في فندق رث الحال قليلاً ولكنه فندق تاريخي بشكل مجيد هو فندق آستور هاوس، فهو أول فندق أجنبي تأسس في شنغهاي، في العام 1846. ويقوم الفندق على إحدى نهايتي شارع البند، وهو الشارع العام الرئيسي الأصلي للمدينة، وهو يسير على طول نهر هوانغبيو. وكان شارع البند طوال أكثر من 150 عاماً هو المكان الذي يشكل الحد المشترك بين شنغهاي وبين الناس القادمين، ناس المحيط، أو شعب المحيط مثلما كان يعرف الأجانب دائماً.

لقد شهد فندق آستور هاوس النجاح الكامل لبروز الصين إلى العالم الحديث، من إدارة الأفيون الإنجليزية في الأربعينيات من 1840 وصولاً حتى رقصات الشاي في المجتمع المهذب في العشرينيات من 1920، إلى الأعمال المفرطة للصين الماوية في الستينيات من 1960. السقوف المزخرفة بفن الديكور، المتميز بتصاميم الهندسة المستوية، والألوان الجريئة، سقوف عالية، وألواح أرضية الحجرة ذات الصرير أصلية، وكنت تستطيع أن تقود سيارة صغيرة حتى تصل إلى درج الفندق مع الدرابزين. هنا أقام يوليسيس اس. جرانت* في جولته العالمية في السبعينيات من 1870. وأقام هناك أيضاً تشارلي شابلن وجورج بيرناردشو وألبرت آينشتاين، حين كانت شنغهاي هي المكان الذي يزار في آسيا في القسم الأول من القرن العشرين. وبحسب الأسطورة

* يوليسيس سيمبسون غرانت (1822-85) قائد جيوش الاتحاد عند نهاية الحرب الأمريكية الأهلية ، ورئيس الولايات المتحدة 1869-77. (المترجم)

الحضرية، فإنَّك في القرن التاسع عشر، كنت تستطيع أن تطلب الأفيون من خدمة الحجرة في فندق آستور هاوس، وأن شو إن لاي، الذي كان سيستمر حتى يكون رئيس وزراء الصين، اختبأ في آستور هاوس حين كان مشاغباً شيوعياً في العشرينيات من 1920. شنغهاي، أكثر من معظم المدن، مشبعة بالأساطير الحضرية.

والإقامة هنا هي أيضاً حنين إلى الماضي بالنسبة إلي شخصياً. فقد كان أول فندق أقمت فيه في الماضي في شنغهاي، في صيف العام 1988. وبعد دراستي اللغة لمدة عام، التحقت بي زميلة جميلة من صفي من الجامعة في إنجلترا. وكنا سنسافر في أنحاء الصين لمدة ثلاثة أشهر بالقطار قبل أن نركب قطاراً عبر سيبيريا عائدين إلى أوروبة من خلال الاتحاد السوفييتي.

أقمنا في غرف نوم دولار للسرير لحملة حقائب الظهر في فندق آستور هاوس (وهي ما زالت موجودة) في ذلك الصيف الشديد الحر. تجولنا في الشوارع، نتلمس الحصول على إحساس لشنغهاي الجديدة بوصفها المدينة التي زحفت زحفاً بطيئاً خارجة من شرنقتها الماوية. وبقينا ساهرين حتى ساعات متأخرة من الليل، في الخارج على شرفة الفندق المغطاة بالخشب القديم، محاولين أن نفهم الصين، والكون، وأن نفهم أنفسنا طبعاً. وتلك الزميلة الجميلة من صفي هي الآن زوجتي وكانت قد أمضت من مدة قريبة آخر ست سنوات معي في الصين. وحين كنت أرفع حقيبة ظهري إلى غرفتي وحيداً، لم أستطع أن أتمالك نفسي عن الابتسام لها في المرآة الباهتة للمصعد القديم المتداعي.

وقبل الذهاب إلى العشاء، ألبس بنطالي القصير وحذاء الجري وأتجه خارجاً من أجل القيام بالهرولة. فإذا كان هذا وقت التغيير بالنسبة إلى الصين، فأنا آمل، أنه أيضاً وقت للتغيير بالنسبة إلي، وعلى نحو أكثر تحديداً بالنسبة إلى خط وسط جسمي. فأنا أحاول أن أتخلص من عشرة أرطال إضافية (حسناً، الأقرب خمسة عشر رطلاً) كان الطعام الصيني قد أودعها في ستة أعوام حول شخصي. وصارت هذه الحاجة أكثر إلحاحاً بسبب ما كان يحدث حتى الآن ـ أو لا يحدث ـ في أعلى رأسي. فبعد شباب كثير الشعر، فإن آلهة الشَّعر الحقودة، عليها اللعنة، بدأت تسحب

البساط من تحتي (ومن فوقي). وهكذا، فقد عزمت على ألا أصل إلى الأربعين بديناً وأصلع معاً. فقد سجلت بتهور لأقوم بالجري في ماراثون بكين، بكل طوله الذي يبلغ 26.2 من الأميال، في الخريف. وقد بدأت التمرين بالجري لأميال قليلة في اليوم قبل الانطلاق مغادراً بكين وأنا آمل أن أزيد المسافة اليومية حين أسافر طوال الصيف، ثم أجري الماراثون قبل المغادرة في النهاية إلى لندن.

بدأت بنوايا عظيمة، على الرغم من القيظ، ولكن بارتكاب غلطة الجري على طول ممشى المشاة العام الواقع بين شارع البند وبين النهر. فالمنطقة مزدحمة جداً إلى درجة أن الهرولة بسرعة تصير لعبة الكرة والدبابيس الإنسانية. أحد المخاطر الوظيفية للعيش في الصين هو أنه لا يوجد هناك حيز كثير كافٍ للحركة في أي مكان (حتى تصل إلى صحراء غوبي). وأنا أحاول رياضة تسبب التعرق وتشبه التزلج المتعرج من خلال الجمهور لمسافة تصل إلى عشري الميل تقريباً، ثم أقرر أن أترك الستة والعشرين ميلاً الباقية إلى الصباح وأترنح في مشيتي خجلاً عائداً إلى الفندق للاستحمام.

انقضى مسائي الأول في شنغهاي على شرفة مطعم يسمى نيو هايتس (المرتفعات الجديدة). وهو يقوم على قمة الثلاثة على شارع البند، وهو واحد من صف المباني الاستعمارية التي تستحق التقدير التي كان قد تم تجديدها حديثاً، ويقع على بعد مئات قليلة من الياردات على طول الواجهة المائية من فندقي. والثلاثة على شارع البند تحتوي على سفينة القيادة الجديدة متجر جيورجيو أرماني، ومعرض فن، وفندق إيفيان سّبَا، وأربعة مطاعم عصرية على الموضة، ومن جملتها مطعم المرتفعات الجديدة، في القمة نفسها، وشرفته المفتوحة في الهواء الطلق معلقة بارتفاع سبعة أدوار فوق الطريق. ومن الشرفة ترى منظراً من أشد مناظر المطاعم أسراً للب في العالم، يطل على الطريق العام بمساراته العشرة من شارع البند، ويطل عبر نهر هوانغبيو على مقاطعة بودونغ غير العادية التي بنيت حديثاً.

وتأتي كلمة البند من كلمة هندية قديمة تعنى رُصافة، أي، حاجز ترابي، وجلبها معهم البريطانيون من الهند. والمنطقة الموجودة حول البند كانت هي المكان الذي

بنيت فيه أول مستودعات (دعيت «مخازن الجملة») وبناها تجار الأفيون الذين جاؤوا جماعات إلى الصين في منتصف القرن التاسع عشر ليصنعوا ثرواتهم.

الشمس التي راقبها تجار الأفيون وهي تغرب فوق نهر هوانغبيو، تغرب الآن لي وأنا أصل إلى الشرفة مع مشروبي من البيرة. وتهب نسمة رقيقة، دافئة متصاعدة إلى الداخل قادمة من النهر، مطلقة في الهواء رائحة الفرصة نفسها التي أطلقتها منذ أكثر من 150 عاماً. واستسلمت مخازن الجملة، والخردة المطروحة جانباً، والسفن الشراعية السريعة وأوكار الأفيون، استسلمت للزجاج وللمعدن اللامعين من مدينة القرن الحادي والعشرين. ويرفرف من عدة مبان استعمارية مجاورة العلم الأحمر للحزب الشيوعي الصيني، وقد أخفاه المنظر الرأسمالي الذي يضج بالأزيز أسفل منه. وبرج الساعة في الواجهة المائية القديمة لبيت الجمارك، الذي بني في العام 1925 ووفق نموذج ساعة بغ بن لندن، يدق الساعة باللحن المفضل لدي ماو، وهو، «الشرق أحمر». ولكن الشرق لم يبق بعد اليوم أحمر. وريش الرأسمالية متعدد الألوان، والمنظر على طول شارع البند شعلة من النور الأخضر، والأزرق، والأبيض يصرخ بقصيدة رثاء للاقتصاديات الماركسية. وتقول تقارير الأخبار إن الصين تعاني نقصاً حاداً من الكهرباء، ولكنك لن تعرفه من كمية الطاقة التي تئز في سماء ليل الصيف الحار هنا.

ويعبر النهر بنفسه طريقه من خلال وسط هذا كله، إنه نهر هوانغبيو الأسود، والبطيء الحركة جداً، والمتدفق تدفقاً ضئيلاً أسفل ذقن دلتا يانغسي من مصب النهر الأم نفسه. ثلاثة مراكب ضخمة لنقل البضائع، محملة بالفحم، تندفع صاعدة ضد مجرى النهر، وهي منخفضة جداً في الماء حتى تكاد تظهر مثل غواصات تقريباً. وأطلقت سفينة شحن كبيرة بوقها، وكأنها تذكر الذين يتناولون عشاءهم من أهل ما بعد الحداثة في المطعم العالي فوق شارع البند أن الثورة الصناعية مازالت تحدث في الأسفل تحتهم.

وبين رجال الأعمال الأجانب العديدين يجلس الأثرياء الصينيون الذين يتناولون عشاءهم في مطعم المرتفعات الجديدة وهم النخبة الجديدة، وهم الذين اكتسبوا ذوقاً للتونة الميزو ـ غليز، والزابليونية (طبق حلو من البيض والسكر والخمر) وخمور

العنب الأسود. وهم ناس يتحدثون عن الاندماجات، وشراء معظم حصص الشركات، والتطبيقات البرامجية القاتلة، وتلفاز بث البيانات الإعلامية المتعددة من الإنترنت إلى الحاسوب، في جوالاتهم الخليوية. ناس يبينون كم المسافة التي قطعتها الصين في ثلاثين عاماً من الإصلاح الاقتصادي. ناس صينيون حسب الموضة الدارجة، وأثرياء، وعصريون، ويحيي أحدهم الآخر في تناول الكوكتيل، وهم ينكتون ويضحكون بكل الثقة لغرفة مليئة بأثرياء من نيويورك يتناولون العشاء. انتقلوا من السجود على الأرض احتراماً إلى قبلة الهواء في أقل من قرن.

اسأل أي واحد من هؤلاء الناس عن مستقبل الصين، ولن يكون هناك أي سؤال. فإن تواضعهم الصيني الطبيعي قد يمنعهم من التبجح أو الشعور بالعظمة مع التشفي بشأن العظمة الممكنة للصين، وأما بالنسبة للأغنياء الجدد من شنغهاي فالمستقبل مشرق.

وتقدم مدينة نيويورك مقارنة جيدة. بكين هي واشنطن دي.سي، المدينة العاصمة، وهي أكثر إفراطاً بالانشغال بالسياسة من أن تكون في مقدمة التجارة. شنغهاي هي مانهاتن، على الرغم من أنها من عدة وجوه مانهاتن في حوالي العام 1910 بلدة ازدهار والمهاجرون يتدفقون إليها. يوجد 13 مليون نسمة تقريباً في شنغهاي (وكان في نيويورك في العام 1910 خمسة ملايين نسمة تقريباً). وكما كان في نيويورك منذ مائة عام، كان كثير من هؤلاء الناس قد وصلوا قبل قليل من مكان ما آخر.

ليس هناك تمثال للحرية ليرحب بهم هنا، ولكنني وأنا أقف مطلاً عبر النهر المتعرج وناظراً إلى الحقول الإليزية* من بودونغ، يبدو لي أنه يجب أن يكون هناك تمثال. أو على الأقل تمثال للفرصة. فمنذ أن بدأت شنغهاي تنمو بوصفها مركزاً للتجارة الخارجية في الأربعينيات من 1840، كانت المدينة دائماً أم المنفيين. والاختلاف عن نيويورك هو أن المنفيين هنا داخليون، لم يأتوا من عالم قديم ليبنوا عالماً جديداً، وإنما هم يحاولون أن يقلبوا العالم القديم إلى عالم جديد، وذلك واجب أصعب بكثير. إنهم

* في الأساطير اليونانية تمثل الحقول الإليزية مسكن السعداء في العالم الآخر بعد الموت ويعمها السلام. (المترجم).

لاجئون لم يأتوا من الأراضي القديمة عبر المحيط، من دبلن أو كييف أو باليرمو، وإنما جاؤوا من الأرض الداخلية. إنهم جماهير محتشدة من هافيه وشينكيانغ، ولانجو، وهي المدن التي سأزورها في رحلتي على طول الطريق 312.

برج مكاتب جديد مشرق قائم على الجانب الآخر من النهر صار شاشة ضخمة للتلفاز، وتتناوب عليه الإعلانات ودعايات الحكومة التي تضيء كل جانب المبنى، وإحدى الرسائل تستبدل بعد خمس ثوانٍ بأخرى.

أهلاً بكم إلى شنغهاي. وغداً سيكون أجمل.
1746 يوماً أخرى إلى أن يحين معرض شنغهاي العالمي
المساواة الجنسية سياسة أساسية في بلادنا
كلوا شوكولاته دوف

بعد العشاء، أتجول ببطء عائداً باتجاه شارع البند، متجنباً العدد الكبير من المتسولين الذين يتسكعون عند باب المطعم، ومتوجهاً عبر الطريق إلى الممشى الموجود على الواجهة المائية التي حاولت أن أهرول فيها في وقت أبكر في المساء. تستطيع أن تحفظ الشارع الخامس، وبيكاديللي، والشانزيليزيه. هذا هو المشي الحضري المفضل لدي في كل العالم. ليس هناك شيء يشبهه تماماً، وخصوصاً في مساء صيفي حار. فالطاقة، والجو، والأمل، والإمكانات، والماضي، والمستقبل، كلها هنا. قلب مدينة شنغهاي يجعلك تشعر أن الصين أخيراً، بعد قرون من المحاولة، قد تكون على حافة العظمة مرة أخرى.

آلاف من السياح، الصينيين والغربيين، يتحركون على ممشى المشاة ومصابيحهم الومضية لأخذ الصور تطقطق فجأة مثل ضوء الحُباحب في ضوء أغبش. الغربيون يفعلون ما يفعله الغربيون دائماً في شنغهاي، فهم يحاولون أن يعيدوا خلق الماضي وهم يخطفون صور المباني الاستعمارية القديمة. والصينيون أيضاً يفعلون ما يفعله الشعب الصيني دائما، فهم يحاولون أن يهربوا من الماضي وهم يخطفون صورهم في الاتجاه المعاكس، وهم يحدقون عبر النهر نحو زقورات * بودونغ الباهرة.

* إشارة إلى تشبيه المباني بأبراج المعابد العالية وكانت تسمى زقورات في سومر وبابل وآشور في بلاد ما بين النهرين، (المترجم).

كانت شنغهاي بطيئة في الظهور من نومها الاشتراكي في الثمانينيات من 1980. وهي لم تقلع في الواقع إلى أن تولت مجموعة من سياسيي المدينة السيطرة على القمة في الحزب الشيوعي بعد سحق المظاهرات المنادية بالديمقراطية في ميدان تيانانمين في شهر حزيران/ يونيو من العام 1989. بعدئذٍ، في التسعينيات من 1990، حلَّق اقتصاد شنغهاي، حين استُهلِك الأمل والمثالية في الثمانينيات من 1980 على نار كبيرة من العدمية والمال النقدي.

كانت بودونغ أحواضاً قديمة فقط للسفن وحقول الأرز حتى مطالع التسعينيات من 1990. والآن وصلت إلى أن تجسد روح عصر الصين الحديثة، مئتا ميل مربع من المكاتب، والشقق، ومتاجر التسوق لتضيف إلى المبالغات من صيغ التفضيل إلى مدينة تتبجح من قبل ذلك بأسرع قطار في العالم، وبأعلى فندق في العالم، وببعض أعلى المباني في العالم. حين تنظر بعناية إلى بودونغ، من السهل أن تعتقد أن أقوى تسعة رجال في الصين (الذين يكونون اللجنة الحالية للمكتب السياسي للحزب الشيوعي) هم جميعاً مهندسون.

أمشي طول شارع البند، ثم أعبر عائداً تحت الطريق، ماراً بالمغنين الدوَّارين وبالمتسولين تحت التقاطع، متوجهاً نحو مدخل السيدة الجليلة نقيبة شارع البند، وهي فندق السلام. وكان يعرف سابقاً باسم كاثي، وكان قد بناه في العام 1929 وريث لإحدى عائلات شنغهاي المشهورة قبل الحرب من يهود العراق، وقطب العقارات فيكتور ساسون. وتحول مركز الثقل الاجتماعي في الثلاثينيات من 1930 من فندق آستور هاوس الموجود حول ركن الشارع إلى فندق كاثي. والجاز فيه أكثر قفزاً كذلك، وحجراته أكثر أخذاً من فن الديكور لناد ليلي لرقص سريع وحيوي. وحين أصابت الأنفلونزا نوئيل كووارد* في أثناء إقامته في العام 1930، كتب(حيوات خاصة) في واحد من الأجنحة في كاثي.

«روليكسو، روليكسو»

* نوئيل كووارد (1899-1973) كاتب مسرحي، وممثل، ومؤلف موسيقي، ومخرج إنجليزي. (المترجم)

يبرز صوت من الظلال، يلفظ التحية المعتادة للباعة المتجولين الذين يتسكعون خارج فندق السلام وهم يضيئون ساعاتهم المزيفة من جيوبهم لتطلع عليها. الصين، طبعاً، هي مركز العالم للسلع المزيفة. حقائب غوشي، ساعات روليكس، قمصان رالف لورين كلها لك مقابل دولارات قليلة. فإذا كان من الواضح أنك لا تريد أياً من هذه، يتغير اتجاه الرمي فجأة.

ويهمس الرجل بإنجليزية مكسرة ومن دون إشارة التملك «بار سيدات، بار سيدات، هل تريد أن تذهب إلى بار سيدات؟»

الإيمان الشيوعي الصحيح قد رُفِع، ومعه رفعت الأخلاقيات الشيوعية، وأي شيء الآن يمشي. وفي العادة، تقنعُ الباعةَ المتجولين كلمات مختارة قليلة في اللغة الصينية أنك كنت هنا من قبل وأنك في الحقيقة لا تريد أياً من سلعهم المزيفة ونواديهم الليلية السيئة السمعة. ولكن في هذه الليلة، وهذا الرجل الملحاح على وجه الخصوص يستعرض القائمة التي يمتلكها، فأنا أجيب بالصينية بحزم (لا أريد) لكل واحدة من سلعه، وفي النهاية وصل معي إلى سلعة لم يسبق لي أن سمعتها من قبل.

ويقول: «غولفو، غولفو».

وأتوقف قليلاً لأنظر إليه مباشرة في وجهه وأنا أستطيع أن أشم رائحة الثوم في نفَسه.

«ماذا؟»

وهو يكرر، «غولفو، غولفو»، وقد تشجع باهتمامي، وهو يشير باهتمام إلى صديقه، الواقف إلى جانب المدخل المؤدي إلى الفندق.

وعلى الجدار اصطفت ثلاثة أطقم كاملة من مضارب نوع كول أواي. ويخبرني أصدقائي من لاعبي الغولف أنك لا تكاد تستطيع أن تعرف الفرق بين المضارب المزيفة مثل هذه وبين المضارب الحقيقية. وسعره؟ ألفا يوان لكل المجموعة، وتساوي 250 دولار تقريباً لمجموعة من المضارب التي يمكن أن تكلف 2000 دولار على الأقل في الغرب.

وأتجاوز فندق السلام وأتجه مباشرة نحو فندق آستور الواقع خلفه. وفي مقابله يقوم المتنزَّه العام الذي كان معلقاً على مدخله حسب ما يفترض لوحة أسطورية من العصر الاستعماري تقول: غير مسموح لا للكلاب ولا للصينيين. (أو أن تلك أيضاً أسطورة حضرية أخرى؟)

وبعدئذ، وأخيراً، ألحظ وأنا أمشي إلى نهاية شارع البند، مدخلاً لم يسبق لي أن رأيته من قبل في أي وقت. وهو محجوب قليلاً في ظل الشارع السريع المرتفع الذي يصعد الآن من الطريق، وهو يلقي بظلاله تقريباً على جدار ما يبدو بوضوح أنه مجمّع كبير. لا ترى أي مبان في الداخل من الطريق، ولكن لوحة صغيرة إلى جانب البوابة تعلن أن هذا هو رقم 33، البند، موقع القنصلية البريطانية السابقة. وهناك طريق خاص يوصل إلى الخلف منطلقاً من البوابة ويختفي في مجموعة من الأشجار. إنها مظلمة ظلاماً كاملاً، وليس هناك أي إشارة إلى الحياة باستثناء حارسين ليليين في كوخ صغير بالقرب من البوابة.

وأسألهما: «هل أستطيع الدخول؟»

ويجيب واحد منهما، وهو رجل نحيل له كتلة كثيفة من الشعر الأسود، وشامة كبيرة على خده: «لا، آسف».

«أريد أن ألقي نظرة فقط. أنا إنجليزي».

وعلى الرغم من أننا سممناهم بالأفيون، وسرقنا أرضهم، وقطعنا أوصال بلادهم، وعاملناهم بغطرسة، وأذللناهم، واستعبدناهم تقريباً، فإن الناس الصينيين العاديين، الأسماء المائة القديمة، مهذبون نحو الأجانب وخدومون لهم على نحو مذهل، نعم، حتى للبريطانيين منهم. وهذا موقف لا يتوقف قط عن إثارة تعجبي. ويقتنع هذا الرجل. ويجيب: «حسناً، إذاً، سوف أريك بشكل سريع جداً».

هناك مبنيان محجوبان في نهاية الطريق الواصل من البوابة خلف مجموعة من الأشجار: مبنى القنصلية ومبنى إقامة القنصل. كلاهما بني في العام 1872، وهما مترابطان بممشى متعرج مغطى. وكان هذا طوال عقود واحداً من مراكز الحكم الاستعماري في شنغهاي في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين.

والمبنيان الآن يظهران بحالة سيئة وباليين في ظل شنغهاي الحديثة. ويتراقص ضوء مصباح الجيب الكهربائي مع الحارس على هيكلي المبنيين الجاثمين، المكونين من طابقين، بشرفاتهما ذات الطراز الاستعماري والمصارع الخضراء للنوافذ التي تغطي النوافذ المقوسة الضخمة. وأنا أطلب منه أن يشعل مصباحه في الداخل، على الغبار وفراغ الحجرات. وفجأة كانت لحظة من تلك اللحظات فوق الواقعية السريالية، في كل الأرجاء حين أستطيع، مع الطنين المنبعث من مساء من القرن الحادي والعشرين في كل الأرجاء، أن أسمع تقريباً ضحك القرن العشرين ومحادثته، ورنين كؤوس الشمبانيا وصراخ الفكتوريين، وأشباح شنغهاي الاستعمارية. فالكثير جداً مما هو الصين اليوم مرتبط بحاجتها إلى أن تمسح إذلال تلك الأعوام، وبشكل أخص الإذلال الذي لقيته على أيدي البريطانيين.

لقد تصادمت الأمتان لأول مرة في العام 1793، حين وصل مبعوث بريطاني اسمه اللورد ماكارتني إلى الصين مع حمولة سفينة من الهدايا ليطلب وضع نهاية للقيود الصينية التي كانت مفروضة على التجارة. وقد أزعج ذلك المبعوث الصينيين فوراً برفضه أن يؤدي السجود أمام الإمبراطور شيانلونغ، وهو ما كان يعني السجود بنفسه تسع مرات ولمس الأرض بجبهته. وأخيراً منحت له المقابلة، فطرده الإمبراطور من دون تأخير مع رسالة إلى الملك جورج الثالث قالت الكثير حول الكيفية التي كانت الصين ترى نفسها بها في ذلك الزمان:

لقد اطلعنا على نص رسالتكم الرسمية، وصياغة الكلمات فيها تعبرعن إخلاصكم. ويمكن منها رؤية تواضعكم المخلص وطاعتكم بشكل ظاهر. إنها محل الإعجاب، ونحن نوافق موافقة كاملة... والآن، أيها الملك، أنت أهديت أشياء مختلفة إلى العرش... ونحن لم يسبق لنا قط أن قدرنا الحاجيات البارعة، ولا نحن بحاجة أدنى حاجة إلى صناعات بلدكم.

مثل هذه الوثيقة، طبعاً، كانت مثل خرقة حمراء للثور البريطاني، وأمضى التجار البريطانيون السنوات الأربعين التالية وهم يحاولون فتح السوق الصيني. وقد فعلوا ذلك عن طريق إحضار الأفيون من الهند للمتاجرة به في مقابل الشاي، والخزف

الصيني، والسلع الترفية الأخرى التي كانوا يريدونها. والأفيون البريطاني سمم المجتمع الصيني، مضيفاً توتراً جديداً إلى التوترات الداخلية العديدة التي كانت تتطور من قبل ذلك في كل أنحاء الإمبراطورية. واعتراضات بكين على التجارة البريطانية أشعلت شرارة حرب الأفيون الأولى، التي انتهت بهزيمة الصين هزيمة كاملة. وأجبرت بكين على توقيع معاهدة نانجينغ في العام 1842، وتنازلت فيها الصين عن جزيرة هونج كونغ إلى البريطانيين، وأجبرت على فتح خمسة موانئ أمام الأجانب. وكان أحد هذه الموانئ ميناء قرية صغيرة لصيد السمك اسمها شنغهاي. في هذه المدن، تم التنازل عن الأرض لشعب المحيط، وهي الأرض المعروفة باسم الامتيازات، ليبني عليها هؤلاء الأجانب بيوتهم وقنصلياتهم وكنائسهم، ولا يطبق فيها القانون الصيني. والمنطقة التي تقف عليها القنصلية البريطانية كانت جزءاً من امتياز شنغهاي الدولي.

ومعاهدة نانجينغ كانت البداية الرمزية لطريق الصين الطويل وطريق العذاب إلى التكامل مع بقية العالم، حين بدأت القوى الغريبة ببطء تقدر الباب المفتوح. ووصلت موجات من شعب المحيط، من المبشرين والفجار، ومن المغامرين ورجال الأعمال، إلى الموانئ، يبحثون عن مستقبلهم أو يهربون من ماضيهم. ونمت شنغهاي على صورة مدينة غريبة. واسمهما في العقل الغربي يفوح بالفرص وبالمبالغات المفرطة، وبحسية الشرق وغموضه. وعلى عكس ذلك في العقل الصيني، حملت شنغهاي رائحة كريهة من الإذلال والتلوث من قبل الغرب. لقد كانت طفل السفاح للصين.

وكل شيء فعله الصينيون بعد العام 1842، من الجهود المعتدلة الأولى للإصلاح إلى الثورة التي أطاحت النظام الإمبريالي في العام 1912 إلى تبني الشيوعية ونصرها النهائي في العام 1949، كان يدور حول استعادة الأرض الصينية من المستعمرين واستعادة عظمة الصين. والآن، بعد أكثر من قرن ونصف تلت، ذلك هو ما يبدأ أخيراً بالحدوث.

ويبتسم الحارس ابتسامة عريضة كالتكشيرة من اهتمامي بالتاريخ الذي يقطر من القنصلية القديمة. وهو لا يعبأ بهذا المكان. وما يمثله بالنسبة إليه هو أنه مجرد

مبان بالية مثلت الإذلال في ماضي الصين؟ وربما يرى أن هذه المباني يجب أن تهدم. ولماذا لا يقام شيء أفضل منها، شيء حديث؟ وبعد أشهر قليلة سمعت أن الموقع يجري استصلاحه وترميمه من مجموعة فنادق محترمة من هونغ كونغ، ليقلب إلى فندق شبه جزيرة شنغهاي.

ونتجول، ونتبع حزمة ضوء مصباحه الكهربائي، عائدين عبر الطريق الطويل نحو البوابة.

وأقول له: «آسف بشأن كل ذلك الموضوع المتصل مع الأفيون، وكل الأشياء الاستعمارية. لسنا فخورين جداً بكل ذلك، وأنت تعرف».

فيقول وهو يضحك: «لا تقلق. ذلك تاريخ. لا تستطيع أن تغير التاريخ».

2
الاقتلاع من الجذور

لا بد أن العفاريت في مناجم نيون بورنيو تعمل وقتاً إضافياً كي تبقي شنغهاي مضاءة.

وباستثناء لاس فيغاس (ومن الممكن طوكيو)، نادراً ما رأيت لوناً أنبوبياً حاراً جداً مثل ذلك. امش على طول شارع نانجينغ في قلب مدينة شنغهاي، وستصاب بالعمى من كل نوع من لوحات النيون، وكلما كانت أعلى صوتاً، وأشد إشراقاً فهي أفضل بالنسبة إلى الحد الذي يهم شركات الأعمال الصينية.

وبصرف النظر تماما عن الأنواع العديدة من السلع والأطعمة التي يجري الإعلان عنها، كان كل ذلك النيون يلمع ليوصل رسائل مهمة جداً عن الصين الحديثة. وأول كل شيء، واضح وبسيط، هناك الازدهار الاستهلاكي المثير للتعجب الذي يجري في المدن الكبيرة والصغيرة. وحين وصلت أنا لأول مرة، في العام 1978، كان العديد من المواد اليومية ما زال يُشترى بتذاكر توزيع الطعام فقط، ولم تكن تستطيع أن تشتري الحليب مباشرة أيضاً. والآن، فإن أي شيء تستطيع أن تشتريه في الغرب تستطيع أن تشتريه في مدينة صينية مثل شنغهاي. هل تريد مسجل إم بي 3 (MP3)؟ أو آي بي أو دي (IPOD)؟ أو أي علامة تجارية أخرى متوافرة لكل متجر مقسم إلى إدارات؟ معالج طعام؟ دراجة تمرين؟ كلها موجودة هنا. كافيار؟ شمبانيا؟ كعك أوريو؟ فطور حبوب من نوع كي (K) خاص؟ سمِّها. المتاجر في مدن الصين الساحلية تخزنها كلها.

الشيء الثاني الذي يمكن ملاحظته وأنت تسير في أنحاء مدينة مثل شنغهاي هو أمر واضح نوعاً ما ولكن يجب ألّا يقلل من قيمته في السياق الأعرض من تاريخ الأمة. الصين في سلام. فطوال النصف الأول من القرن العشرين، كانت في فوضى، وتنهار داخلياً ويجري افتراسها من الذئاب الاستعمارية. وبدأ السلام أخيراً يصل مع تولي

الشيوعيين السلطة في العام 1949، ولكن البلاد حينئذٍ ابتدأت بافتراس نفسها، وسط جنون حملات ماو السياسية. ومع ذلك، فكلمات السر للحزب الشيوعي الآن، هي السلام على المستوى الدولي والاستقرار على المستوى المحلي. وسياسة الحزب للاستقرار تتسبب في خلق مشكلات عديدة، ولكنها أيضاً توفر بيئة يستطيع الكثير فيها أن يزدهر.

وأخيراً، فالشيء الثالث الذي أضاءه كل هذا النيون هو أن الصينيين الحضر الآن يملكون السلام ليعيشوا من دون تدخل الحكومة في العديد من نواحي حياتهم. وبعد قتل الطلاب في ميدان تيانانمين في العام 1989، عقد قادة الحزب الشيوعي صفقة غير مكتوبة، وغير محكية مع شعب الصين: ابقوا خارج السياسة، وتستطيعون عمل أي شيء تريدونه. وفي أثناء التسعينيات من 1990، ولأول مرة في أكثر من أربعين عاماً (أو ربما أربعة آلاف)، بدأت الحكومة الصينية تتراجع من الحياة اليومية للناس.

كانت هذه الحركة ذكية جداً من الحزب. فالقفص الصغير للطائر الذي كان قد عاش فيه الصينيون سابقاً صار قفصاً كبيراً. فأنت لا تستطيع بعدُ أن تطير في السماء الزرقاء الصافية، وهم يستطيعون أن يمسكوا بك إن أرادوا ذلك، ولكن هناك حيز وافر للطيران حول المكان. وبعد أكثر من أربعين عاماً من كون المواطنين مجبرين على المشاركة بالسياسات، فقط كانت الأكثرية سعيدة جداً في الانفكاك منها انفكاكاً كاملاً وأن يتوجه الناس نحو أعمالهم في كسب المال.

والآن قف للحظة فقط، وانظر في هذه التطورات الثلاثة من زاوية مختلفة.

أولاً وقبل كل شيء، نعم، هناك ازدهار استهلاكي، ولكن أكثرية الناس لا يملكون الوصول إليه. وإذا كنت في الولايات المتحدة تحتاج إلى المال للحصول على السلطة، فأنت تحتاج إلى السلطة لتحصل على المال في الصين. رفاهية الصين اليوم هي مجرد بريق الثروة، وهو متاح ليصل إليه بشكل رئيس الفاسدون والمحظوظون جداً المتربعون على القمة، وهو بريق يموّه جماهير تغلي من المشكلات الاجتماعية الحضرية، مثل البطالة، والجريمة، والإسكان القديم. وهي لا تذكر أيضاً الريف. ابتعد ميلاً واحداً

فقط عن النيون في شارع البند وفي طريق نانجينغ، فسوف تجد آلافاً من الناس يعيشون على أربعين دولاراً في الشهر، مكافأة الفصل من أعمالهم السابقة في المصانع غير الموجودة الآن. وهم لا يملكون تأميناً صحياً، وإذا وقعوا في المرض حقيقة، فكل مايستطيعون عمله هو الذهاب إلى البيت والموت فيه.

وأقسام من المتاجر الكبيرة المتخصصة فارغة بشكل دائم، مثل الكثير من مجمعات المكاتب الجديدة وأسواق التسوق، التي بنيت نتيجة لصفقات الفساد، معطية طبقة سطحية من الوفرة التي تجعل المدينة تبدو أكثر ازدهاراً مما هي عليه. ومقابل كل عضو من الطبقة الوسطى البارزة التي تسوق عائلتها إلى محل بيتزاهت في سيارة فولكس فاجن سيدان، ربما يوجد مائة عائلة لا تكاد تستطيع أن توفر لنفسها دراجة عادية.

وثانياً، نعم، الصين في سلام مع معظم جيرانها وفي الوطن، ولكنه سلام قلق. وبتقديرات الحزب نفسه، هناك أكثر من مئتي حادث في كل يوم من عدم الاستقرار الريفي، وكثير منها نتيجة لعدم المساواة الاقتصادية التي برزت منذ أن بدأ الإصلاح. وبعدئذ هناك الغضب الذي يشعر به كثيرون من المواطنين الصينيين على ردود الفعل وعلى الاغتصاب الذي يستمر في كل أنحاء دولة الحزب الواحد، من دون أن يكون للمواطنين ضده أي ملجأ يعينهم لأنه لا يوجد أي نظام قانوني مستقل.

ولدى النظر إلى مسافة أبعد في الميدان، فهناك أكثر من سبع مئة صاروخ، بالإضافة إلى البلاغة المعادية الصادرة من بكين، موجهة إلى جزيرة تايوان، التي تزعم الصين أنها تخصها. وتحافظ الصين على التِّبت وعلى شمالها الغربي المسلم من الانفصال من خلال القوة الوحشية المجردة بشكل كامل فقط. والصين تفرض مزاعم عن جزر في بحر الصين الجنوبي عن طريق بناء مراكز أمامية عسكرية على حواجز مرجانية ليست قريبة في أي مكان من الأرض الصينية وتقيم علاقات مع أمم مثل إيران، وكوريا الشمالية، والسودان وهي دول مدانة من العديد من البلاد الغربية بسبب نشاطاتها الذرية وسجلاتها في حقوق الإنسان.

وثالثاً، مرة أخرى إن من الصحيح أنه كان هناك بعض الإرخاء للضوابط الاجتماعية، ولكن الشعب الصيني ما زال لا يتمتع بأي حماية من حكومته الخاصة، وليس هناك أي شيء يقترب مجرد اقتراب من نظام عامل من الزواجر والضوابط على سلطة الحزب الشيوعي في الصين.

والجماعات الدينية، مثل «كنيسة البيت» المسيحية، التي ترفض أن تكون جزءاً من الكنيسة التي تكفلها الحكومة، وأعضاء الجماعة الروحية فالون غونغ، ما زالت تضطهد بلا رحمة من الحزب الشيوعي، وأي قضية لو كانت تُنظر داخل غرفة المحكمة لتم التلاعب بها من الحزب، الذي يعين كل القضاة. والمحاكم الصينية تملك نسبة إدانة تصل إلى أكثر من 99 بالمائة. ومازالت بكين تدير نظاماً لمعسكرات العمل، يمكن أن يرسل إليه أي عضو من المجتمع، في أي وقت. وعشرات الآلاف من الناس مازالوا محكومين «بالإصلاح من خلال العمل» في كل عام.

كل شيء كتبته قبل قليل، من وجهتي النظر كلتيهما، صحيح. إنه يعتمد فقط على الكيفية التي تنظر بها أنت إلى الصين. هل الكأس نصف فارغ؟ أم هل هو نصف ملآن؟ الكيفية التي يرى بها الأجانب الصين لها علاقة في الغالب بشخصياتهم الخاصة وبانحيازاتهم الخاصة (أو بشخصية وبانحيازات المراسل الذي يكتب المقالة أو الكتاب الذي يقرؤونه) بالقدر الذي لها به علاقة مع الواقع الحقيقي على الأرض. وبالنسبة إلى كل حقيقة صحيحة عن الصين، فإن عكسها هو أيضاً صحيح دائماً تقريباً، في مكان ما من البلاد.

أدى هذا الانشطار إلى انقسام بين مراقبي الصين بين معانقي حيوان البندا، الذين يقولون إن الصين تقوم بعمل عظيم ولن تكون تهديداً لأحد (في الوقت الذي يوافقون فيه، طبعاً، على أن هناك مشكلات حدودية طرفية)، وبين قاتلي التنين، الذين يقولون إن الصين تهديد لكل واحد وتدعو الحاجة إلى احتوائها (في الوقت الذي يلاحظون فيه أن هناك بعض التحسينات القليلة الصغيرة التي حدثت).

ماذا تعتقد أنت؟ يعتمد الجواب على اليوم الذي تسألني فيه. الصين تتدخل في رأسي وتزعجني على أساس يومي. في يوم من الأيام أعتقد أنها فعلاً سوف تستولي

على العالم، وأن الحكومة الصينية تقوم بعمل أقصى شيء غير عادي سبق أن شهده كوكب الأرض في أي زمان. ويقول البنك الدولي إن الصين قد انتشلت 400 مليون نسمة من الفقر منذ العام 1978. وذلك الرقم أكبر من كل سكان أمريكا الجنوبية.

وفي اليوم التالي سوف يبدو كل شيء مبنياً على الرمل وأنا أتوقع أن كل شيء سيصل إلى السقوط من حولنا. سأكون مشمئزاً من الطريقة التي يعامل بها الحزب الشيوعي شعبه، وسأكون مصدوماً من التكلفة الحادة لكل هذا، التكلفة الإنسانية، التي تبدو مقبولة للحكومة في كل شيء تفعله.

وفي رأيي، مع ذلك، أن أحد الأشياء ذات الأهمية الحاسمة هو الاختيار. فنحن، ومهما تكن انحيازاتنا، لا نستطيع، ببساطة، أن ننكر أن هناك، في الصين الآن، اختياراً أكبر مما كان يوجد فيها سابقاً في العادة. وأنا مع الرأي القائل إنه أينما يوجد الاختيار، يوجد في الغالب تغيير نحو الأفضل، وذلك يشمل إمكانية التغيير السياسي. فأنت الآن تستطيع أن تختار أين تعمل في الصين. وأنت تستطيع أن تختار من تتزوج. وأنت تستطيع أن تختار الورق أو البلاستيك لتصر به التموينات المنزلية والطعام الذي تشتريه، وأن تختار حليباً كامل الدسم أو منزوع الدسم لقهوتك الكابتشينو. إنها لا تحدث غدا، ولكنني أعتقد أنك بعد أن تسمح للناس باختيار ما يوضع على وجه البيتزا الخاصة بهم، فهم عاجلاً أو آجلاً سوف يرغبون في اختيار قادتهم السياسيين.

«شنغهاي تملك ثلاث مئة ميل من الطرق السريعة المرفوعة» وكان سائقي في سيارة الأجرة يمتلك وميضاً في عينيه وهو يضرب بمنحدر المزلق الذي يقود صعوداً إلى واحد من أحدث طرق المدينة. «كم ميلاً من الطرق السريعة المرفوعة يوجد في نيويورك؟»

وأخبره أنني لا أملك تلك الحقيقية جاهزة فوراً. ويصل هو إلى ما وراء المرور البطيء الحركة في مركز البلدة ويرفع السرعة إلى مستوى جنوني باتجاه الغرب، نوع مما يفعله فو مانشو لفيلم بليد رنر، وهو ما جعلني أصل إلى حزام في المقعد الخلفي لم يكن موجوداً. وألاحظ، مثلما يلاحظ المرء أشياء خيالية في أزمنة الخطر، أن هناك على ظهر مسند الرأس الخاص بالمقعد الأمامي إعلاناً عن جراحة تكبير الصدر.

ويصرخ إلى الخلف نحوي، بابتسامة عريضة، «لا تقلق، السلامة أولا».

إذا بقيتَ حياً بعد السواقة، فإن طرق شنغهاي غير عادية. سباق سلسلة من الطرق السريعة المرفوعة عبر المدينة على ارتفاعات متنوعة فوق الأرض. وكان يجب تدمير صفوف من الدارات (الفلل) الاستعمارية الجميلة لإفساح الطريق لبعض من هذه الطرق. وبعض الدارات الباقية الآن تقف على بعد ياردات فقط، وأحياناً إنشات بعيداً عن الطريق العام السريع من ستة مسارات، تقبِّل الطريق وهو يضرب وجوهها.

أنا متوجه لأقابل مضيفة لعرض يشارك فيه الجمهور بمهاتفة البرنامج واسمها بيه شاه. وعرضها يسمى: حالة العقل في شنغهاي، ويظهر من منتصف الليل حتى الساعة الثانية، في كل ليلة وصار مشهوراً بين المقيمين في المدينة طوال سنوات.

وتستطيع أن تهاتف بيه شاه عن أي مشكلة وتطلب نصيحتها، حياً على الهواء، وآلاف الناس يفعلون ذلك.

وأنا أريد أن أتحدث معها حول الاختلال الضخم الذي يجري في عقول الناس. فشنغهاي قد تجعل الزائر يشعر أن الصين على حافة العظمة، ولكن سرعة التغيرات قد تركت اضطراباً نفسياً وروحياً في عقول الكثيرين من الناس. فبعد اضطرابات السنوات الماوية، والآن اضطرابات رد الفعل ضد السنوات الماوية، لا يمكن أن توجد إلا بلدان قليلة قد تكون في حاجة إلى العلاج أكثر من حاجة الصين إليه. ومع ذلك وبالنسبة إلى معظم الصينيين فهناك أماكن قليلة كي يعودوا إليها من أجل طلب اللجوء والنصيحة وسط عاصفة التغيير الثلجية. وكثيرون من الشباب، غير المقيدين بالأخلاقيات الكونفوشية والشيوعية، يجدون بيه شاه أقرب شيء يملكونه للوصول إلى صوت موجه غير مثقل برفض الوالدين (على الرغم من أنها تعرف كيف توزع بعض ذلك حين يكون ضرورياً). وكان قد أعطاني رقمها صديق، وهكذا هاتفتها لدى وصولي إلى شنغهاي وحددت مقابلة على العشاء.

نتقابل في بيتزا هت ونطلب كوكا للحمية وفطيرة بيتزا سجق خنزير ولحم بقري مبهرة كثيراً. ويحتمل أن تكون هي في أواخر الثلاثينيات، ولها وجه مستدير، وعينان متأملتان، وتلبس قميصاً مزيناً بالأزهار، وبنطالاً أبيض من الكتان. وتخبرني، ونحن

نجلس نلوك فطيرتنا، أنها تخطط للقيام بأول رحلة لها إلى أوروبة، وأسألها عن عرض برنامجها الإذاعي.

وتقول: «على العموم، فإن المهاتِفين لبرنامجي لديهم ثلاثة أنواع من المشكلات، الأول، مشكلات عاطفية، وبشكل رئيسي لها علاقة بالحب. والثاني، مشكلات عمل وعلاقات في العمل. والثالث، علاقات داخل الأسرة».

«وقد بدأت بتقديم البرنامج حالاً بعد أن تخرجت في الجامعة، في العام 1992. وفي ذلك الوقت، كانت المسألة العاطفية الرئيسة، هي أن الناس كانوا قد بدؤوا يقيمون علاقات حب خارج الزواج. كانوا يعرفون أن ذلك خطأ، وكانوا يريدون أن يعرفوا ماذا كان عليهم أن يعملوا بعد أن حدث ما حدث. والآن، هناك المزيد من الناس الذين يقيمون علاقات أيضاً، ولكن الكثيرين من هؤلاء الناس لا يعتقدون فعلياً أن ذلك خطأ. إنهم يعتقدون أن ذلك معقول، وقابل للفهم».

نبرتها محسوبة وناضجة، وأنا أستطيع أن أتخيل، وهي تقضم فطيرتها، لماذا يود الناس أن يهاتفوها على الهواء طلباً للنصيحة.

«كان هناك تغيير ضخم، وخصوصاً بين النساء، فالنساء يردن استقلالهن، وهن يعتقدن أنهن يملكن الحق في أن يفعلن مايردن، وهن، الآن، يملكن اختيارات كثيرة جداً من أساليب الحياة، وخيارات من أشياء ليتمتعن بها».

وتقول ييه شاه: إن الكثيرين من الناس الآن يعتقدون أن ذلك إذاً صواب مقبول، مالم يكن هناك قانون ضده. وتقول: بالنسبة إلى الكثيرين في المدن، فإن الأخلاقيات،أي، الإحساس بما هو صواب أو خطأ، لم يبق مهماً بعد الآن. «وأنا أعتقد أن كثيراً من الشباب مشوشون ببساطة بكل ذلك التغيير. فهم يهاتفون ويقولون إنهم غير سعداء، ولكنهم لا يستطيعون أيضاً أن يسهبوا ليبينوا لماذا؟»

وهذا مهم بالنسبة إلى ييه شاه أهمية كبيرة، فهي فجأة تصير عاطفية تماماً. وشفتها السفلى ترتعش. وتتأتىء وهي تتكلم كما لو كانت تتحدث عن موت شخص ما كان قريباً إليها، وبطريقة غريبة ربما كانت تتحدث فعلاً عن موته.

«الناس، وخصوصاً الشباب، ضائعون» قالتها بالصينية، وكررت كلمة ضائعين بالإنجليزية.

وسادت وقفة عن الكلام في الوقت الذي كانت تستجمع فيه نفسها.

وتسأل: «لماذا، بعد كل ما فعله ماو لتدمير حياة الناس، تسمع أحياناً بعض الناس كبار السن يتذكرون العصر الماوي بمحبة؟» «لأنه كان ما زال هناك، على الرغم من المشكلات، أخلاقيات، وإطار أخلاقي للحياة. كان هناك صواب، وكان هناك خطأ. الآن... ما الصواب؟ وما الخطأ؟»

لا تملك ييه شاه أي أجوبة سهلة، ولكنها تحاول أن ترفع الأسئلة إلى جيل مقتلع من جذوره، جيل تقول إنه ينجرف في فراغ أخلاقي. فالشباب في مدن الصين، بعد صراع دامَ لمدة قرن للهرب من قيود روابط الأسرة والالتزامات الاجتماعية، هم الآن يغرقون في عزلة الفردية.

وتقول، ونحن ننهي فطيرتنا، ونستعد للمغادرة: «والشعب لا يستطيع أن يتماشى مع خطى الآلات. الخطوة السابقة للحياة كانت أبطأ مما يجب، بالتأكيد. ولكنها الآن أسرع مما يجب. في الصين التقليدية، كان الناس يتعلمون، كيف يجب أن يكون الإنسان شخصاً. وفي الحقيقة نحن أكدنا الأخلاقيات، والطقوس، والواجبات كثيراً جداً. والآن، هي ليست مؤكدة بما يكفي. لا أحد يعرف كيف يكون شخصاً بعد الآن. نحن ندرب الفنيين، نحن لا ندرب الناس».

بعد شهور، صادفت اقتباساً من التسعينيات من 1990 قاله عالم مشهور متخصص بالصين هو مايرون كوهين من جامعة كولومبيا، ويبدو أنه يلخص ما تقوله ييه شاه تلخيصاً جيداً جداً.

> بالنسبة إلى كثيرين من سكان الصين، فإن كون المرء صينياً اليوم هو من الناحية الثقافية أسهل بكثير من أي زمان في الماضي؛ وذلك لأن هذا التماهي في الهوية لم يبق بعد اليوم يتضمن معايير السلوك المقبولة عموماً. وعلى كل حال، من الناحية الوجودية، أصبح كون المرء صينياً أكثر إشكالاً إلى حدٍ بعيد؛ وذلك لأنه الآن مطلب منشود بقدر ما هو مشروط.

وتستهلكني شنغهاي أربعة أيام كاملة. وكنت أستطيع أن أقيم أربعة أسابيع. وأنا أقابل المحامين الذين يعملون على بناء نظام الصين القانوني، وأقابل رجُلات* (نساء) الأعمال اللواتي يعملن كل صفقاتهن في ملعب الغولف، وأقابل رجال الأعمال الشباب في مشروعات إنترنت حديثة. وأقابل فلاحاً سابقاً بلغ الخمسين من عمره وأمضى أول خمسة عشر عاماً من حياته الراشدة يزرع الرز، ثم سافر على طول الطريق 312 في العام 1986 وكسب الملايين من صناعة الإنشاءات. وهو يملك الآن أربع شقق، وابنته تذهب إلى الكلية في الخارج. وأزور مصنعاً، نموذجاً لمصانع كثيرة جداً على طول شاطئ الصين، مزدحمة بمئات النساء الريفيات اللواتي يعملن في ظروف ديكينزية. لن يكن مليونيرات، ولكنهن يرسلن نصف رواتبهن إلى بيوتهن في قراهن ويساعدن على انتشار بعض الثروة داخل البلاد.

وأزور حياً يهودياً (غيتو) قديماً، هرب إليه أكثر من عشرين ألف يهودي أوروبي في أواخر الثلاثينيات من 1930 لأن شنغهاي ـ شنغهاي المفتوحة، الدولية ـ كانت هي المكان الوحيد في العالم الذي لم يتطلب منهم أن يملكوا تأشيرة دخول. وأقابل دبلوماسياً يخبرني أن المدينة الآن تقوم بتحويل نفسها ثانية، وتتحرك مبتعدة عن الصناعة لتصير اقتصاد خدمة أكثر من ذي قبل. وفي كل مكان، يبدو أن الناس قد وضعوا رعب الماوية خلفهم. ونادراً ما تذكر تلك الأيام. في كل مكان، هناك طاقة وتركيز على المستقبل الذي يبدو أنه ينبع من معرفة عدد السنين التي أهدرت، وعدد الأرواح، التي أزهقت.

في يوم الأحد، أحضر صلاة في كنيسة مو ـ إن في طريق التِبِّتْ، كانت قد بنيت في العشرينيات من 1920، حين كانت شنغهاي ماتزال مركز النشاط التبشيري. وأنا أتسلق الدرج لأجد مقعداً في الشرفة، حيتني سيدة صينية مسنة بشعر فضي وعينين متألقتين، تقولي لي: «صباح الخير» بلغة إنجليزية قوية وواضحة. وأود أن أوقفها وأسألها، «ماذا عبرَت في حياتك؟ وماذا، باسم الله، رأيت؟» ولكنني أبتسم رداً عليها فقط وأستمر صاعداً الدرج. الكنيسة مزدحمة بالناس.

* الرَّجُلَةُ: المرأة. انظر الوسيط مادة رجل. (المترجم)

أجلس في محلات ماكدونالد وأراقب أفراد الطبقات الوسطى الجديدة وهم يحضرون أطفالهم الوحيدين الممتلئين ليلتهموا حتى التخمة شطائر ماكدونالد الكبيرة مع قطع الدجاج. ويجلس الآباء، يراقبون أبناءهم وهم يأكلون، وكل واحد منهم ربما يأمل لاشعورياً أن الطفل الذي يأتي هنا قد ينجرف إلى تيار الثقافة المعولمة التي تجري عبر الصين الحضرية، وينتهي بطريقة ما في مدرسة هارفارد للأعمال.

وأتجول عبر الأزقة الخلفية في أفقر الأجزاء من البلدة، وأبحث عن الجانب المقابل لكل التفاؤل وعن الجانب المعاكس لكل العولمة، أبحث عن بعض الناس الغاضبين، عن بعض الخاسرين في سلسلة الطعام الاقتصادي. وأجد الكثيرين من الناس الذين يتفجعون من فجوة الثروة، وهم يكدحون في كسب العيش في أعمالهم المنخفضة الرواتب في مواقع البناء، وفي المطابخ، وفي أسواق المدينة. ولكنك تسمع، وفي أكثر الأزقة إهمالاً، التي يعيش فيها الناس مكدسين في غرف صغيرة، وقذرة، تسمع القصة مرة تلو المرة: «نعم، الحياة صعبة، وعملنا صعب، ولكنها أفضل مليون مرة من الحياة في الريف».

تلك هي المشكلة مع شنغهاي: فأنت لا ترى في الحقيقة الكثير من مشكلات الصين. أنت تلاحظ، طبعاً، أن القطار المرفوع مغناطيسياً المنطلق من المطار ليس ممتلئاً أكثر من ربع امتلاء على أفضل الأحوال. وتلاحظ أن هناك بعض المتاجر الفارغة في الأسواق الجديدة اللامعة وأن هناك عدداً متزايداً من المتسولين في الشوارع. ولكن السرعة والروعة المظهرية ومجرد الابتهاج من كون المرء في المدينة الأسطورية يعني أن شنغهاي تعمي الزائر عما يثوي في الخلف. فإذا زرت شنغهاي فقط، فسوف تغادر الصين وأنت تعتقد أنها بلا شك متجهة نحو العظمة.

في أصيل أحد الأيام أزور متنزّه لو شون في شمالي شنغهاي، وهو واحة خضراء جميلة تكرِّم أشهر كاتب في الصين من مطالع القرين العشرين. لو شون مدفون هناك في ضريح مشيَّد كبير. منذ مائة عام تقريباً، كان هو في الطليعة في محاولة لتشخيص مشكلات الصين ووصف العلاج، وكتب بأسلوب حارق عن نواحي الضعف في الثقافة الصينية وعن الطبع الصيني. وكتب عن القدماء وعن الحداثة وحاول أن يجد مساراً بين الاثنين.

وكانت الأداة الأدبية المفضلة لدى لو شون هي القصة القصيرة، وصدرت أشهر مختاراته في العام 1921، وهو نفس العام الذي تشكل فيه الحزب الشيوعي في الصين. وكان عنوان المجموعة «دعوة إلى السلاح» ـ ولم تكن دعوة عسكرية، ولكنها دعوة مجازية، دعوة ثقافية، دعوة إلى اليقظة من التبجح ومن المحافظة التي جسدها الإمبراطور شيانغلونغ في رده إلى اللورد ماكارتني، وتلك مازالت، طوال أكثر من مائة عام بعدها، تمنع الصين من اليقظة والتنبه إلى الحاجة إلى تغيير نفسي وثقافي عميق. وفي مقدمة مجموعة «دعوة إلى السلاح» كتب لو شون هذه الفقرة، يصف وطنه وثقافة وطنه:

> تخيل بيتاً حديدياً من دون نوافذ، لا يمكن تدميره مطلقاً، مع وجود كثير من الناس يغطون في نوم عميق في الداخل وسوف يموتون في الحال من الاختناق. ولكنك تعرف، أنهم لن يشعروا بألم الموت نظراً إلى أنهم سيموتون في نومهم. والآن إذا أنت صرخت عالياً لتوقظ قلة من أصحاب النوم الخفيف، جاعلاً بذلك تلك القلة غير المحظوظة تعاني الألم المبرح للموت الذي لا رجعة عنه، فهل تعتقد أنك بذلك تقدم لهم معروفاً؟ ولكن إذا استيقظت قلة، فإنك لا تستطيع أن تقول إنه لا يوجد أي أمل في تدمير البيت الحديدي.

وهكذا أعطى لو شون شكلاً أدبياً للدعوة إلى السلاح وكان لها صدى خلال القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين أيضاً. والقصص في دعوة إلى السلاح التزمت كلها هذا الموضوع، وهو أن الصينيين عاشوا في بيت حديدي من الكونفوشيوسية واحتاجوا إلى الهرب. لقد احتاجوا إلى أن يستيقظوا، وإلى ألاَّ يغيروا النظام السياسي فقط، بل إلى تغيير كل طريقة التفكير.

هناك العديد من المشكلات والنقائص في تطور الصين الحضري الحديث. ولكن حقيقة أن شنغهاي تمتلك قطاراً مرفوعاً مغناطيسياً، وهو أول قطار تجاري مرفوع مغناطيسياً في العالم، هي حقيقة يمكن تتبعها والرجوع بها إلى الدعوة إلى السلاح التي أصدرها لو شون في العام 1921، وإلى كتاب آخرين مثله كتبوا عن حاجة الصين

إلى ثورة نفسية. إنه التقدم المنطقي لتلك الدعوات. إن كل تطور شنغهاي، والطرق، وناطحات السحاب، والإنترنت بسرعة عالية، كلها أجوبة لتلك الدعوات. وأخيراً، أخيراً بعد قرن، شنغهاي تصعد، مثلما الصين تصعد، على ظهر قرن من الإذلال قبل العام 1949، ثم بعدئذ، بعد نصف قرن من الفوضى الشيوعية التي جاءت بعد ذلك العام. والسؤال هل كانت الصين ستنفتح للعالم؟ يبدو سؤالاً قد أجيب عنه إلى الأبد بكلمة «نعم» رنانة. ولكن يا له من طريق كان معذِّباً، مؤلماً، ملتوياً لتصل إلى هناك، ويا له من طريق ما زال موجوداً هناك لترتحل عليه.

في اليوم السابق لمغادرتي شنغهاي، أقابل شابتين من أعضاء الحزب الشيوعي، وأريد أن أسألهما عما يعنيه في هذه الأيام أن تكونا عضوتين في الحزب، وأريد أن أتحقق من أنهما كانتا مضطربتين بالقدر الذي توحي به ييه شاه مضيفة برنامج الراديو ومقدمته أم لا.

ونتقابل في مقهى ستاربكس، وهي ليست بعيدة عن البيت الذي كان الحزب الشيوعي الصيني قد تأسس فيه في العام 1921. وقد حول الشيوعيون البيت القديم إلى متحف، وهو بالفعل أقرب إلى أن يكون مزاراً للحزب الشيوعي، ولكنه على العموم فارغ، وهو قائم كما هو في موقع مجاور لواحد من أشهر المزارات الحديثة في شنغهاي، وهو سوق للتسوق يسمى «السماء والأرض الجديدتان».

عضوتا الحزب الشيوعي، كلتاهما شابتان في العشرينيات، ونموذج للجيل البارع المرتبط بالناس النافذين، وعلى بعد مليون ميل من أعضاء الحرس الأحمر من جيل آبائهم. وكلتاهما اختارت اسماً إنجليزياً.

تعمل لوسي في شركة كبيرة متعددة الجنسيات. ولها شعر أسود طويل، ومظهر مؤدب، ومسؤول يوحي بأنها قد تكون شغلت منصب رئيس لمجلس الطلاب في مدرستها الثانوية. وهي مستغرقة في التفكير في الثقة والنجاح الحضريين الحديثين. وهي تتحدث لغة إنجليزية ممتازة وتفكر بوضوح تفكيراً عميقاً بالموضوعات المهمة.

وهي تقول: «نعم، الشيوعية انهارت في أوروبة الشرقية، ولكن ذلك حدث لأنهم لم يكونوا يعملونها على الوجه الصحيح. وأنا أعرف. أنتم الغربيون تعتقدون أنه، بعد الرأسمالية، ستكون هناك الرأسمالية مع ذلك، ونحن الصينيين، نعتقد أنه بعد هذه المرحلة من الرأسمالية، قد يكون هناك في نهاية المطاف شيوعية».

وأفتح عيني واسعتين. «فعلاً ؟ أنت تؤمنين بذلك حقاً؟»

وهي تومئ بالموافقة.

وتنظر إيميلي متفحصة. وهي أضأل، ولها شعر كثيف أسود وعينان واسعتان. وتقول: «كثير من الناس ينشؤون في هذه البيئة التعليمية». وأفهم أنها تعني بكلامها أن لوسي قد تعرضت لغسيل الدماغ. وتقول: «أنا أؤمن بأقل من إيمان لوسي، أنا غير متأكدة تماماً بشأنها كلها».

وأسالهما: «لماذا التحقتما بالحزب الشيوعي الصيني؟»

وتقول لوسي: «كانت علاماتي جيدة. وكنت طالبة مسؤولة. ليس لدي ما آسف عليه قط. وأعتقد أن هذا الحزب يستطيع أن يأتينا بمجتمع مستقر».

وتشرح إيميلي: «الآن، ليس لأعضاء الحزب الشيوعي أي علاقة مع الإيديولوجية، إنهم ببساطة أفضل الطلاب. ويُعد شرفاً أن تلتحق بالحزب، ويطلب من أفضل الطلاب جميعهم أن يلتحقوا. وذلك نفسه حدث معي».

وأشير إلى المفارقة في هذا، التي سبق لإيميلي أن رأتها. ولكن لوسي مازالت جادة. إنها المثال الكامل الذي يبين كيف أن أفضل الناس المتعلمين هم في الغالب أكثر الناس موالاة للحكومة.

وتقول هي: «نحن نحتاج إلى أن ندرس ما يفكر فيه القادة. نحن نشعر بالارتياح في دراسة هذا. إنه جيد. وأما بالنسبة إلى الشيوعية، فيجب عليك أن تفهمها بطريقتك الخاصة. إنها تعني أن عليك أن تكون عضواً جيداً ومساعداً للمجتمع».

وبعدئذٍ تروي لوسي كيف تم في اجتماع حديث لأعضاء الحزب الشيوعي داخل الشركة الأمريكية الكبيرة المتعددة الجنسيات التي تعمل فيها، توزيع كتابين. كتاب منهما نشره الحزب الشيوعي واحتوى على كل توجيهات الحزب الأخيرة. والكتاب الآخر كان كتاباً للشركة عن كيف تكون بائعاً أفضل.

لوسي وإيميلي عضوتان نموذجيتان من الطبقة الوسطى الجديدة، والشابة والحضرية. إنهما ليستا في الشوارع تطلبان المزيد من الديمقراطية، مثلما كان يفعل أسلافهما في أواخر الثمانينيات من 1980. إنهما تستمتعان بثمار الازدهار. وهما تساندان الحزب لأنه، كما تقولان، منحهما الفرص التي لم تكونا تحت ظروف أخرى قادرتين على الحصول عليها. وعلى الرغم من أنهما وطنيتان جداً، فهما ليستا إيديولوجيتين ولا بأقل حد من ذلك. كلتاهما فردى*. وتؤمنان بالحب الرومانسي. لقد اختارتا عمليهما، وصديقيهما، ولهما أسلوب حياتهما. وكان السعي إلى السعادة مغروساً بعمق كالمقدس في ذهنيهما، إذا لم يكن مغروساً مقدساً حتى الآن في دستور بلدهما. وباختصار، فهما ليستا مختلفتين عن أي شابتين في أي بلد في العالم الغربي. وعرضت عليهما ما تقوله ييه شاه مضيفة برنامج الراديو ومقدمته، وهو أن الجيل الشاب الجديد من الصين ضائع، ومضطرب ولا يعرف ما يؤمن به أو كيف يتصرف.

وتسأل لوسي: «لماذا تقول ذلك عن الصين؟ ماذا عن الغرب؟ هل لدى الناس الغربيين أي شيء يؤمنون به؟»

وتتابع: «أنا لست ضائعة. أنا لا أؤمن بالمسيح أو بوذا، ولكني أؤمن بالكفاح الذاتي، وهو جهد من أجل تحسين نفسي وبلدي. فأنت لا يجب عليك أن تمتلك إيماناً لتمتلك معنى للحياة».

ومرة أخرى تكون إيميلي، وهي أكثر الفتاتين تفكيراً وتأملاً، غير متأكدة جداً. وتقول: «كان لدي فترة شعرت فيها أنني كنت ضائعة، ومضطربة، حين كنت في الكلية. الآن اجتزت تلك الفترة. ولكن هناك بعض الاضطراب على وجه العموم بين الشباب.

* مؤنث فرد ، ويجوز فردة. انظر مادة فرد في الوسيط (المترجم).

فعلى سبيل المثال، كل واحد يشاهد برامج التلفاز الغربي، مثل برنامج أصدقاء، ومثل زوجات يائسات، ونحن واعون وعياً كاملاً بالكيفية التي يعيش فيه الناس في الغرب. فكثيرات من الفتيات، على سبيل المثال، يرغبن في العيش مع أصدقائهن من الشباب، ولكن ذلك يتصادم مع رغبات والديهن».

وتقول لوسي: «ولكن جيلنا مختلف اختلافاً كاملاً عن جيل والدينا. إنه عالم مختلف الآن. يجب علينا أن نعتني بأنفسنا».

وتومئ إيميلي بالموافقة. وتقول: «نحن جيل الأنا». وتقولها بشكل متأمل حزين. «نحن نؤمن بأنفسنا فقط».

والتفاعل النهائي لي مع جيل الأنا من شنغهاي يحدث في ذلك المساء. ففي الوقت الذي كنت أبحث فيه عن المقبرة الدولية في غرب المدينة، أعثر بالصدفة على أول فرع في شنغهاي لسلسلة مطاعم هوترز.

وهوترز، لمن تنقصه الخبرة، سلسلة من المطاعم في الولايات المتحدة الأمريكية تميل النادلات فيها إلى أن يكن لابسات بشكل غير رسمي نوعاً ما، وهل نقول ممتلئات الجسم كذلك؟ ولكن للتأكد من أن لا أحد يظن أن الاسم يشير إلى أي شيء غير محتشم، فإن رمز المطعم بومة كبيرة.

وبالتالي، فقد ترجم الاسم في اللغة الصينية ليكون «مطعم البومة الأمريكي» (هناك بعض الكلمات التي تحمل أكثر من معنى ولا تقبل الترجمة حين يكون أحد المعاني الممكنة غير محتشم).

ونظراً إلى أنني لم يسبق لي في أي وقت من الأوقات أن تعشيت في مطعم هوترز في الولايات المتحدة، شعرت بأنني محرج قليلاً وأنا أخطو إلى الداخل، معتقداً أنه سيكون بيت حفلات الذكور والرجال المنفردين الحزينين. والناس الوحيدون الذين يبدون محرجين مثلي، مع ذلك، كانوا هم الرجال البيض المنفردين الآخرين، الذين لم يكن يوجد منهم الكثيرون. وكل واحد آخر كان يستمتع بوقت رائع. كان هناك ثلاث نساء يابانيات مع أطفالهن. ويبدو أن بعض الرجال الصينيين قد أحضروا النساء

اللواتي واعدوهن، ويظهر أن عدداً من رجال الأعمال يناقشون نوعاً ما من الصفقات، التي لا تعيها فتيات هوترز، في بنطالاتهن البرتقالية القصيرة جداً وفي قمصانهن البيضاء العارية على شكل حرف تي. ويبدو أن وجود المسحة الجنسية كان أقل بكثير مما قد تجده في مطعم هوترز أمريكي. وبشكل ما، فالشيء كله قد تحول إلى خبرة عشاء عائلي صحية إلى حد ما.

إنه عيد ميلاد شخص ما، وهكذا فبنات هوترز يقدمن رقصة صغيرة، ويدعون إلى مشاركة بعض جمهور الحضور، وهو ما عملت على تجنبه، وفي الحال كان هناك رجلان راشدان، من رجال الأعمال الصينيين ببزتيهما يقفان على الكراسي ويلوحان بأذرعتهما في الهواء إلى جانب بنات مطعم هوترز اللابسات لباساً قصيراً.

وتظهر لي المرأة الشابة التي تخدم طاولتي وكأنها الفتاة الوحيدة، من عشر فتيات أو ما يقارب ذلك من النادلات، التي لا تبدو مرتاحة، وتبتسم بعصبية للزبائن الذين تخدمهم. وبدأنا بالحديث وهي تقدم لي البرغر والمقليات. فهي من مدينة ووهان، وهي على بعد أربع مئة ميل داخل البلاد.

وأسألها: «هل يعرف والداك أنك تعملين هنا؟»

وتجيب بضحكة عصبية: «لا، لا يعرفان. إنهما لن يفهما».

وأقول لها: «لا تقلقي، فزوجتي لا تعلم أنني هنا. فهي كذلك لن تفهم».

3
الأشياء تنساب

في الصباح التالي أصعد إلى سيارة أجرة في فندق آستور هاوس، وأطلب من السائق أن يأخذني إلى بداية الطريق 312، في أقصى غرب المدينة. وشنغهاي ضخمة وممتدة، وتستغرق الرحلة أكثر من ساعة، ولو كانت على طول الطريق السريعة المرفوعة. وأشعر بذلك الحزن الذي ينتابني دائماً حين أغادر أكثر مدينة في آسيا حركة وديناميةً، ولكن من المثير أخيراً أن أكون على الطريق.

الطريق 312 يشكل بداية غير ميمونة. فالطريق يزحف خارجاً من تحت ظل الطريق الخارجي الدائري لشنغهاي، وهو طريق سريع ضخم مرفوع يدور حول المدينة. وهناك مخرج من مزلق منحدر يأتي بالمرور نازلاً من الطريق الدائري إلى أن يكون على الطريق 312 وهو يبرز من بين غابة الأعمدة الإسمنتية المسلحة التي تدعم الطريق السريع. وعلى جزيرة المرور الموجودة حول الأعمدة يقف رجلان يلبسان معطفين أبيضين ويقدمان حلاقة للشعر في مقابل خمسين سنتاً.

أخرج من سيارة الأجرة، وأربط حقيبة الظهر على ظهري، وأبدأ بالمشي. وفي أثناء تجولي على طول الممشى الجانبي من أول قطعة من الطريق، تقترب مني ثلاث نساء، من الواضح أنهن من الريف، وكل منهن معها طفل صغير مربوط على ظهرها.

«دي في دي» يتمتمن وهن يتجمعن حولي. «دي في دي». الأقراص الممدودة نحوي هي مجموعة مختارة من أقراص أشرطة الصور الرقمية وعليها مناظر إباحية مطبوعة فوقها. وأهز رأسي وأستمر في الحركة. امرأة شابة أخرى تحمل طفلاً وتتسول، وقصة بلائها مكتوبة على قطعة ورق موضوعة أمامها وهي تجلس على الممشى الجانبي. زوجها يعاني من سرطان الدم ولا يملك المال للعلاج. وما من أحد يرمي النقود في فنجان ورقتها.

يفتخر الطريق بوجود مسارين في كل اتجاه، ويستجمع الطريق الثقة بشكل سريع وهو يبرز من ظل الطريق السريع، وإلى جانبه يسير خط للدراجات العادية، منفصلاً عن الشارع الرئيس. وإلى جانب مسار الدراجات العادية يقع ممشى جانبي عريض، وخلف ذلك يقوم صف طويل من المتاجر، التي تستمر على طول جانب الطريق إلى أبعد مدى تستطيع العين أن تراه. وهناك متجر سجاد، ومعرض سيارات يبيع الفولكس واجن، ومتجر أثاث ضخم يسمى هوم مارت، وهناك، طبعاً، فرع من كنتاكي للدجاج المقلي. (يوجد من قبلُ ألف فرع من كنتاكي للدجاج المقلي في الصين. ويفتح فيها فرع في كل يوم بعد يوم).

الطريق نفسه مزيج مجنون من الإنسانية المتحركة. فكل نوع من النقل الأرضي الإنساني موجود هنا، ومتجه في كلا الاتجاهين، وكأن مؤتمراً عن تاريخ النقل البري على الطريق يجري انعقاده في مكان ما، ويسرع ممثلون من كل عصر إلى الحضور. إنه مِثلُ واحد من تلك المخططات عن نشوء الإنسان وارتقائه، يبرز من حمأة تخص النقل. الناس يمشون ومفاصل أصابعهم تقاتل الأرض (ليس بالضبط)، فالكناس يجر عربة بثلاث عجلات، ويقرع جرساً ويصيح بصوته من دون أن يقصد أحداً بعينه. ورجال ونساء على دراجات بسيطة تكاد تنكسر، ويسيرون بسرعة لا تكاد تكون أسرع من سرعة المشاة. ورجال ونساء، من دون خوذة، يمرون بأزيز على دراجات بخارية صغيرة. ورجال ونساء يضعون الخوذ، وهم بشكل واضح في مكان أعلى في سلسلة النشوء والارتقاء، يئزون داخلين وخارجين من المرور على دراجات بخارية كبيرة. وهناك سيارات عادية، وشاحنات، وخلاطات إسمنت، وحافلات ركاب محلية، وحافلات ركاب للمسافات الطويلة، وحافلات ركاب مترفة عالية النوعية كلها موجودة هنا أيضاً. ثم، يقف عند إشارة المرور الإنسان المنتصب القامة من هذا المنظر الداروينى. سيارة بي إم دبليو بيضاء لامعة من السلسلة 7. إلى أين أنت ذاهب يا سيد يا رَجُلَ بي إم دبليو؟ ومن أين حصلت على المال لتشتري تلك السيارة؟

كان الطريق 312 في العادة هو الطريق الرئيسي غرباً من شنغهاي، ولكنه وطوال عقود كان مستخدماً استخداماً قليلاً، وذلك لأن المسؤولين الحكوميين فقط هم الذين

كانوا يمتلكون سيارات، ومعظم الشحن يسافر باتجاه الغرب بالقطار. وهو ليس طريقاً حراً سريعاً، مثل طريق أمريكي بين الولايات، ولكنه ما يعرف باللغة الصينية بالطريق القومي، وفيه انعطافات إلى مناطق سكنية أو متاجر مثل طريق مدينة عادي تماماً، طريق مشغول في المدينة. ونظراً إلى أن الهمة الشديدة في بناء الطريق بدأت في التسعينيات من 1990، فإن ما يعادل الطرق الأمريكية بين الولايات، قد تم بناؤه الآن، وواحد منها، وهو المعروف باسم 11آ يسير موازياً تقريباً للطريق 312. ولكن رسومه عالية، وهكذا فإن الطريق 312 مازال إلى حد بعيد هو الطريق الأكثر انشغالاً.

إلى جانب المدخل المؤدي إلى سوق خضروات للبيع بالجملة تبيع امرأتان تيبتيَّتان المجوهرات من حقيبة. وبالقرب منهما، صيني مسلم ينتمي إلى المجموعة العرقية من الويغور من شمال غرب الصين واقف إلى مدافىء فحم طويلة، يقلب خطوطاً من كباب الخروف، المرشوشة بالبهارات الحمراء اللامعة. وطبعاً التجار من العرق الصيني موجودون هنا أيضاً، يسيطرون على هذا المنظر، ويديرون المتاجر الصغيرة على جانب الطريق أو يبيعون الأحذية أو الملابس أو الأحزمة أو الربطات، الملقاة على قطع من القماش على المشى الجانبي، ويبيعون الآيس كريم والحلوى، وشرائح الأناناس الموضوعة صحياً داخل أكياس بلاستيكية صغيرة لحمايتها من أدخنة الطريق. وهناك لافتة على المسار المتجه شرقاً تقول ميدان الشعب على بعد 15 كم. وهو على بعد تسعة أميال إلى مركز شنغهاي. وفي اتجاه آخر تعلق لافتة عن أول مكان لي أتوجه إليه، كونشان على بعد 48 كم (30 ميلاً).

وتمر عابرة عني شاحنة عليها اسم شركة مطبوع على الجانب بأحرف صينية كبيرة تقول: «الشؤون الإدارية في الميدان(لوجستك) لشركة روي شون». وبعد دقائق قليلة، أرى شاحنة أخرى، وهذه تعود إلى الشؤون الإدارية في الميدان لشركة وانغ جنغ. وكل دقائق قليلة تمر عابرة عني شاحنة «الشؤون الإدارية في الميدان» لشركة. إنه ازدهار الأعمال في صين اليوم: أعمال الإزالات، وإعادة التموضع، ونقل أي شيء من أي نوع كلها مغطاة بكلمة الشؤون الإدارية في الميدان. والكلمة في اللغة الصينية، مثل هذه اللغة المنطقية الرائعة، تعني بالترجمة الحرفية «الأشياء تنساب».

في العقل الغربي، تستدعي رحلة الطريق صوراً للخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960، عن جاك كيرواك*، والمتمردين على المجتمع والهبيين الذين ينطلقون في السفر على الطرقات ليجدوا أنفسهم، أو ليخسروا أنفسهم، أيما الأمرين أرادوا فعله. والسفر على الطرق العامة في الصين ظاهرة جديدة جداً، ولم يقع الشعب الصيني بعد في حب الطريق المفتوح، بل هو بالأحرى زواج مصلحة. إنهم يسافرون عليه بالدرجة الرئيسة للضرورة، ليجدوا عملاً، من أجل إطعام أنفسهم وعائلاتهم. ولتأتي بمقارنة أمريكية أكثر تلاؤماً هنا، عليك أن تسافر إلى الوراء إلى الثلاثينيات من 1930 وإلى المهاجرين من أوكلاهوما (الأوكيز) في روايات جون شتاينبك، هارباً باتجاه الغرب من منطقة دست باول إلى كاليفورنيا. ومعظم رحلات الطريق في الصين في هذه الأيام مازالت رحلات جون شتاينبك أكثر مما هي رحلات جاك كيرواك، واحتفاء بالحقيقة، فقد أحضرت معي نسخة من رواية جون شتاينبك الرائعة (عناقيد الغضب)**، المحفوظة في الجيب العلوي من حقيبة ظهري.

تيان يابين لم يقرأ قط شتاينبك أو كيرواك. فهو مدير إعلانات يبلغ من العمر 27 عاماً ويقول إنه يكسب نحو ستة آلاف دولار أمريكي في الشهر. وهذا يساوي تقريباً ستة أضعاف أجور عامل المصانع المتوسط في شنغهاي. له رأس حليق وصوت حاد قليلاً، ويدخن الغليون، وهو ما يعطيه جواً من الغرابة الشاذة غير المعتادة في المجتمع حتى في صفوف الأغنياء الجدد في شنغهاي. وأصدقاء تيان ينادونه تنتن، على اسم الشخصية الفرنسية في أفلام الكارتون. وهو متعلم تعليماً جيداً وله اتصالات جيدة، وقد ازدهر تيان في الصين الجديدة. لقد اشترى شقته الخاصة، ويسافر إلى الخارج لقضاء الإجازات، يحافظ على مسايرة آخر التقانة. ولكن عاطفته الحقيقية هي في سيارته الجيب اليابانية الصنع.

---

* جاك كيرواك(1922-1969) كاتب أمريكي يعرف بأنه يمثل الجيل المنهوك، وأشهر أعماله روايته: على الطريق. (المترجم).

** جون شتاينبك(1902-1969) روائي أمريكي، نال جائزة نوبل للأدب في العام 1962، مؤلف عناقيد الغضب، وهي رواية سرد فيها الكاتب مأساة رحيل العمال الفلاحين وصغار الملاك من ولايات أوكلاهوما، وآركنساس، وشرق تكساس مما صار يسمى منطقة دست باول، نتيجة الجفاف، وعواصف الغبار، والكساد الكبير. وعرف المهاجرون باسم الأوكيز من اختصار اسم ولاية أوكلاهوما. (المترجم).

وجدت تنتن من خلال نادي سائقي جيب الطرق الوعرة في شنغهاي، والذي انتسب عضواً فيه، وقد ارتبطت معه قرب بداية الطريق 312 تماماً. وفي كل نهاية أسبوع يجتمع أعضاء نادي سيارات الجيب معاً ويسوقون سياراتهم إلى خارج المدينة لمدة يوم أو يومين مستكشفين المنطقة المحيطة. وقافلتنا اليوم ثلاث سيارات فقط. في الأسبوع الماضي كان هناك ثمانية. وبالإضافة إلى تنتن تضم المجموعة مالك جيب آخر في العشرين وبعض السنوات من عمره اسمه ليو الصغير، وهو مبرمج برامج حاسوبية يسميها كل واحد باسم الجمل، وتضم شخصاً آخر في الخمسين وبعض السنوات من عمره وهو رجل أعمال يسمى تشانغ الكبير. ويعاني جيب ليو من مشكلة في المحرك، ولذلك فهو يركب مع تنتن ومعي.

معظم الحركة على طول الطريق 312 تتجه شرقاً، نحو شنغهاي، لأن المهاجرين يتدفقون إلى المدن ليجدوا عملاً. هؤلاء الأربعة الممتازون الممثلون للطبقة الوسطى الصينية سائرون عكس التدفق، فهم متجهون إلى الغرب.

تنتن يسوق متعرجاً داخل حركة المرور وخارجها، وكأنه يحاول أن يفقد الآخرين، لا أن يقودهم. وكلما تحركنا أبعد خارج شنغهاي، كانت المصانع تصطف على الطريق. هذه هي المنطقة الصناعية الخلفية لشنغهاي، وهي التي تزود نمو المدينة، وتلوث هواء المدينة، وتحافظ على سعر السلع الاستهلاكية حول العالم منخفضاً انخفاضاً مضحكاً. كل شيء يصنع هنا، كل شيء تشتريه أمريكا، من دمى باربي وأضواء شجرة الميلاد، ومن الأحذية الخفيفة والملابس، إلى حواسيب الحضن (اللابتوب) والهواتف الخليوية الجوالة.

والمداخل إلى المصانع، وغرف العرض، والأسواق تومض، وهي تمر، في غشاوة باهتة من اللون الصناعي الرمادي. سوق شيجياو للخشب، وسوق دونغوا لمواد البناء، وقرية فينغ بانغ لفلاحة البساتين كلها تبيع كل شيء قد تحتاج إليه لبناء بلد من البداية. أحد المتاجر يبيع ببساطة الأعمدة. العمود الأيوني، أو الدوري، أو الكورينثي، أحمل ما تختار.

على طول كل الطريق تفغر فاها واسعاً مواقع البناء في الأماكن التي سينشأ فيها قريباً المزيد من المصانع. وهناك الكثير من التربة التي يجري نقلها فوق هذه المواقع الشاسعة للإنشاء وإن من العجيب أن العالم غير مائل عن التوازن نتيجة لذلك. والممثلون عن السيارات من كل شركة معدات لنقل التربة موجودة على كوكب الأرض قد أرسلتهم شركاتهم ليسهموا بذلك.كوبلكو، وكوماتسو، وهونداي، وسوميتومو، وكاتربلر، كلها موجودة هنا، وهي تفوق بعددها السيارات العادية تقريباً، وكلها تلتهم التربة الغنية الموجودة على جانب الطريق التهاماً نهماً. وترتفع الرافعات من مواقع البناء أيضاً، متصارعة مع الأبراج الكهربائية الثقيلة على طول الطريق، ومتنافسة معها لتشكل أقبح خلفية في المنظر.

بالنسبة إلى الأجنبي المنتمي لما بعد الحداثة، يكون السفر باتجاه الغرب على طول هذا الطريق رحلة إلى الخلف في الزمان، إلى ماض صناعي خلفته بلاده الخاصة خلفها إلى حدٍ كبير. المنظر كله يعطي الشعور بالتدنيس. وأما بالنسبة إلى المهاجرين الصينيين الذين ينتمون إلى الزمان قبل الحديث، والذين يسافرون نحو الشرق إلى مستقبل صناعي لم يعرفوه قط، فإن المداخن والمصانع تعلن الخلاص، وهي رموز جاءت إليهم أخيراً من الحداثة وفرصة ليكتسبوا أكثر مما سبق لهم أن اكتسبوا من قبلُ في أي زمان.

أقول لتنتن، «أنا أحب سيارتك،» على نحو متأثر تأثراً حقيقياً.

يضبط نظارته الشمسية، وينظر إلي في مرآته الخلفية، ثم يستشعر الرضا في الثناء الموجه من الراكب الأجنبي معه. ويوافق بالقول: «إنه ركوب ناعم»، وذلك بصوته الحاد، مستشعراً بوضوح أنه لا يلزم أن يقال أي شيء أكثر من ذلك.

ويتحدث مع تشانغ الكبير على راديو موجة المواطنين ويلامس النظام الكوني لتحديد الموقع الموجود في السيارة. ويقول: «معظم الطرق في الصين الآن موضوعة على النظام الكوني لتحديد المواقع. لقد كانوا ينشئون الخرائط لها طوال سنوات حتى الآن. وإذا وجدت الوقت، فأنا أود أن أتابع الرحلة إلى الشمال الغربي المسلم في الصيف القادم، وأستفيد منها فعلاً».

سمع تنتن عن تلك الرحلة من صديقه، ليو الصغير، الذي ساق سيارته إلى هناك في العام الماضي. ويتحمس ليو ويقول:»تستطيع أن تقوم بالرحلة في خمسة أيام إذا سقت السيارة من دون توقف».

الشمال الغربي المسلم من الصين، في النهاية القصوى من الطريق 312، وفيما وراء صحراء غوبي، هو المكان الذي أتوجه إليه. ومن الواضح أيضاً أنه هو المحطة المقصودة الباردة لأي شاب مهني حضري ناجح يعيش في مستوى عال يحترم نفسه ويمتلك سيارة خدمات رياضية (اس يو في) في هذه الأيام، وهو مثلما كان الاتجاه،في أمريكا، نحو كاليفورنيا في الطريق 66 في الخمسينات من 1950. الكثيرون من أغنياء الصين الجدد مفتونون بالأركان البرية القفر من بلادهم، وذلك في وجه من الوجوه بسبب أن تلك المناطق مختلفة للغاية عن شرقي الصين. وإذا كنت تستطيع أن تقول إنك سبق أن ذهبت إلى سينكيانغ، أو التيبت (أو وهو أفضل، إلى تايلند أو أمريكا)، فإن جيرانك يعرفون أنك تمتلك المال للسفر.

ويشرح ليو الصغير، «هناك عدد كبير من الجماعات العرقية المثيرة للاهتمام الذين يعدون جزءاً من بلادنا ولكنهم ليسوا مثلنا، منهم الويغور المسلمون، التيبتيّون. إنهم بعيدون جداً، كما تعرف».

الطريق 312 هو واحد فقط من طرق عديدة تتجه إلى الغرب، ولكنه الطريق الوحيد الذي يستمر حتى النهاية إلى كازاخستان. وهناك شيء مرضٍ إلى حد ما في معرفة أنه يمتد ثلاثة آلاف ميل، وأنني في بداية شيء طويل جداً وهو من الناحية الرمزية ضخم. وتظهر إلى جانب الطريق أعمدة إسمنتية صغيرة بيضاء، وقد كتبت عليها الطريق القومي 312 باللون الأحمر، وعدد الكيلومترات من شنغهاي مكتوب تحت ذلك.

فجأة يتسع الطريق. وهو الآن ثلاثة مسارات في كل جانب، ولكن الحاجز الإسمنتي الموجود في الوسط يختفي، ويتبخر النظام المفروض. فالسيارات تخرج من أبواب المصانع من دون إنذار. وآخرون يقومون بالاستدارة إلى الخلف في عرض الطريق.

ويظهر رجل مسن على دراجة فجأة، وهو يسوق دراجته عكس المرور في المسار السريع أمامنا. تنتن لا يعلق ولو مجرد تعليق على ذلك ويقوم ببساطة بالانحراف لتجنبه، وكأن هذا حدث عادي.

وألمح له، «هذا لا يبدو شيوعياً جدا». وأنا أحدق في الخارج في المصانع ميلاً بعد ميل. وهي تظهر لي مثلما أتخيل كيف كانت بيتسبيرغ (أو مانشستر، إنجلترا) قد بدت في العام 1890 تقريباً.

ويضحك تنتن، وكأنه بذلك يقول، «ومن يهتم؟» ونتحدث عن الصينيين وكيف أنهم عمليون وغير إيديولوجيين. وأحدثهم عن مرة زرت فيها مضمار سباق في خارج بكين وكان الناس فيه بوضوح يضعون رهانات على الخيل. وكنت مندهشاً حين اكتشفت أن هذا كان يحدث، نظراً إلى أن القمار غير قانوني في الصين. وفكرت أنني كنت أستطيع أن أجرب أيضاً، وهكذا اقتربت مما ظهرت لي مثل نافذة للمراهنة وقلت إنني أريد أن أضع رهاناً. فأخبرتني المرأة أنني لا أستطيع أن أضع رهاناً (فالمراهنة غير قانونية في الصين، كما أكدت)، ولكن إذا أردت، فأنا أستطيع أن أضع تخميناً على واحد من الخيل.

تخمين! كنت أستطيع أن أضع تخميناً! وهكذا وضعت عشرين يوان (دولارين ونصف)، ووقفت أشجع الحصان، آملا أن يكسبني تخميني بعض المال. ولم يكسب الحصان، ولكن ذلك لم يكن مهماً. وكان يمكن أن أدفع أكثر من دولارين ونصف لاكتساب الخبرة وما أعلمتني به عن الصين الحديثة. فأن يكون مضمار سباق للخيل (وليس مكاناً سيئاً للقمار في قبو سري ما بل مكان على مرأى من الجمهور وعلمه، في مضمار سباق يستطيع كل إنسان أن يراك فيه) قادراً على العمل علانية، ويأخذ رهانات على الخيل، وذلك ببساطة بأن يسمى الرهانات شيئاً ما آخر هو أمر غريب تماماً لا يكاد بصدق. والأمر مثل ذلك مع نظام الصين السياسي أو الاقتصادي. سمّه «اشتراكية بخصائص صينية». سمّه ما شئت. فإذا كان الحزب الشيوعي يحتاج ورقة تين لغوية، فذلك حسن، على الرغم من أن كل واحد يعرف أنها في الحقيقة، في أجزاء عديدة من الصين، رأسمالية صناعية فجة.

كونشان مدينة يسكنها أكثر من مليون نسمة بما لها من مؤهلات خاصة، فهي في الأصل موطن واحد من أشهر أساليب الأوبرا القديمة في الصين. والآن، مع ذلك، تكوّن كتلة ممتدة من المصانع والتطور، متصلة اتصالاً كاملاً إلى شنغهاي في الشرق وإلى مدينة سوجو في الغرب. وفي نهاية المطاف، فالدلائل تؤكد أن كونشان قد وصلت، وأسحب هاتفي الخليوي الجوال وأقوم بإجراء مكالمة مع مدير مصنع تايواني، صديق لصديق كنت قد كلمته حتى اليوم السابق. ونسوق السيارة حول المكان لبعض الوقت في محاولة لمعرفة المكان. وفي كل مكان تنظر إليه، هناك المصنع تلو المصنع فقط، وكلها متشابهة على نحو مزعج: بوابة ضخمة معدنية قابلة للسحب أمام مبنى طويل، متكتّل مغطى بالآجر الأبيض، ينبعث من صوت أزيز الآلات.

وأخيراً نجد المصنع الذي نبحث عنه، ويخرج المدير لمقابلتنا. وهو من النوع الودود، وغير الرسمي في سلوكه اسمه السيد يانغ، وقد ترك زوجته وأسرته في تايوان والتحق بعشرات الآلاف من رجال الأعمال التايوانيين المستثمرين في كونشان. والمدينة معروفة محلياً باسم تايبيه الصغيرة، على اسم العاصمة التايوانية.

وأقفز من الجيب أشكر ليو وتنتن على الركوب، وأتجه إلى الوراء إلى المكان الذي يقف فيه الجمل وشيانغ الكبير لأصافحهم أيضاً، وأتمنى لهم الخير في يومهم الخلوي، متجهين إلى الغرب. ثم يسوقون سياراتهم عائدين نحو الطريق 312، ليتابعوا مغامرتهم.

مصنع السيد يانغ يصنع تلك الصادرات الأساسية جداً للغولف، وهو العشب الاصطناعي لملاعب السواقة في كل أنحاء العالم. وهو المصنع العادي للإنتاج الكبير الموحد، والذي يوجد منه الآلاف على طول الساحل الصيني، من شنغهاي نزولاً حتى هونغ كونغ. وهناك طبعاً بعض الإساءات المروعة لحقوق العمال في المصانع الصينية، التي يغلق فيها على العمال ويجبرون على الكدح في ظروف قريبة مما يشبه العبودية. والظروف في هذا المصنع نموذجية أكثر: أساسية ولكنها ليست سيئة. العمال كلهم سافروا إلى هنا من داخل البلاد، براً بالطريق أو في القطار، وهم يستلمون 120 دولاراً في الشهر، زائداً إمكانية الدوام الإضافي.

قف عند أي مصنع، وسوف تسمع نفس القصص. «أنا مزارع. وأكسب هنا في الشهر أكثر مما كسبته في سنة أزرع فيها الرز. نعم، إنه عمل شاق، ولكنه يستحق العناء. وأنا أضع أخي لينهي المدرسة الثانوية. أجوري تساعدني على دعم والديّ في البيت».

ضاعف هذا المصنع بآلاف فوق آلاف فوق آلاف، وأنت تحصل على بداية التحول في أمة. والمنطقة معروفة باسم دلتا يانغسي، أو أحياناً باللغة الصينية باسم الدلتا الذهبية لأنها تنتج الكثير جداً من «الذهب» وتضم مئات من بلدات المصانع مثل كونشان التي تغطي معاً مساحة حول شنغهاي تساوي حجم ولاية كنتاكي تقريباً (أو أكبر قليلاً من البرتغال). وتقول الإحصاءات الصينية إن هذا البحر المحدد من المصانع ينتج سلعاً تكون 20 بالمائة تقريباً من قيمة الاقتصاد الصيني. وذلك يعني أنه لو كانت دلتا يانغسي بلداً مستقلاً، لكان اقتصاده وصل إلى رتبة يكون فيها الاقتصاد السابع عشر من بين أكبر اقتصادات العالم، تحت إندونيسيا وأستراليا مباشرة، وفوق جنوب إفريقية، ونيوزيلندا، وتايلاند.

السيد يانغ لا يفكر في مثل هذه الاقتصاديات الكبيرة. إنه يحاول فقط أن يحصل على المزيد من الطلبات من ميادين الغولف في أمريكا الشمالية. ويبدو أنه يملك علاقات ممتازة مع موظفيه. فنحن جميعاً نجلس ضاحكين ومتندرين بالطرائف على عشاء أساسي في مطعم المصنع ولكنه طيب المذاق. وكنت قد خططت أن أتوجه إلى نانجينغ في هذه الليلة، ولكن السيد يانغ يقترح أن نذهب لنغني بعض الكاريوكي وهو غناء كلمات أغنية وفق موسيقاها المسجلة، وهي دعوة تبدو لي أفضل من أن ترفض. وهكذا، ومع عدد من العمال الذين تركوا في المطعم، نقفز إلى سيارة السيد يانغ المغطاة (فان) ونتوجه إلى مركز كونشان.

في الصين، في أي مكان فيه ناس، توجد فيه غرف الاستقبال لمؤانسة الزوار. وفي الحقيقة، وفي المكان الذي لا يوجد فيه ناس، توجد فيه غرف كاريوكي. ويحتمل أن توجد غرف الكاريوكي على الجانب الصيني من قمة إيفرست.

ويقود السيد يانغ السيارة بنا إلى مكان كاريوكي خيالي ممتاز جداً قريب، وأدفع المال لغرفة منجّدة ومؤثثة بالمخمل البنفسجي. الأغاني المفضلة تايوانية، وهي ليست لمجرد إرضاء رؤسائهم فقط. تماماً مثلما يحب الباكستانيون الأفلام الهندية، فهكذا الأسماء المائة القديمة، فالموسيقى تقوم بجسر الانقسام السياسي مع العدو الرئيسي عبر مضيق تايوان. وكل العمال يغنون أغنية واحدة، وبعضهم يغني أغنيتين، وأنا أحاول أن أؤجل مشاركتي بنفسي. وفي الحال، مع ذلك، لم يوافقوا على أن يتركوني أؤخر مشاركتي أطول، وهكذا أنقر بإصبعي عبر القائمة، ماراً على أغنية الكاربنترز، وباك ستريت بويز، وجاكسون5، وماراً على أغنية جورج مايكل «آخر عيد ميلاد» (وهي التي كنت أحب في سري أن أغنيها فعلاً)، إلى أن أجد أغنية تناسب المناسبة. وهتف العمال يستحسنون بأدب مع الأداء الحزين، النشاز الخارج عن اللحن، ولكنه الأداء المناسب على نحو فريد لأغنية «ديسبيرادو» من نعيق الإيغلز وهم يخرجون إلى ليل صيف حار من غرب خشن قفر.

وفي الصباح التالي أجد لي سيارة أجرة وأتوجه نحو جونجيانغ، وهي مدينة على بعد ثلاثة أرباع الطريق من شنغهاي إلى نانجنغ. سيارات الأجرة في الصين رخيصة ومريحة وهي، طبعاً، تمتلك ميزة على حافلات الركاب من ناحية السماح لك أن تقف حين تشاء. وأنا أخطط أن أقوم بوقفة قصيرة فقط في جونجيانغ. وهي نوع من حج شخصي لزيارة تذكارين لاثنين من شعب المحيط كان لحياتهما تأثير على حياتي.

المدينة الكبرى الساحلية شنغهاي، التي تمددت إلى أن ضمت إليها كونشان وضمت بعد ذلك المدينة القديمة سوجو، قد قضت على الماضي الزراعي لمنطقة جيانغسو الجنوبية. ولكن حين يترك الطريق 312 سوجو خلفه، يبدأ القليل من الخضرة بالظهور بين البلدات. ونمر على المدن الصناعية الوسخة يوكسي وشانغجو قبل الوصول إلى جونجيانغ التي يتبين أنها مكان جميل رائع مليء بالمفاجآت. وهي مشهورة بإنتاجها من الخل، الذي تتبقى رائحته في كل مكان، وهناك متحف جيد على نحو مدهش للفن الصيني التقليدي، والخزف، والبرونزيات. وهذا هو أيضاً المكان الأول الذي تستطيع أن ترى فيه نهر يانغسي، الذي كان قد جرى موازياً للطريق 312

منذ شنغهاي، ولكن خارج مرمى البصر. النهر منظر جميل لتراه من أرض عالية في مركز جونجيانغ، وهو هنا واسع مثل بحر داخل البلاد، يلمع لمعاناً خالداً إلى ما وراء المدينة المتغيرة.

جونجيانغ (وكانت تلفظ سابقاً شينكيانغ)كانت في الموجة الثانية من موانئ المعاهدة التي فتحتها القوى الأوربية قسراً بعد حرب الأفيون الثانية، في العام 1860. واسمها يعني «الحامية على النهر» وهي ما زالت ميناء من أكثر الموانئ انشغالاً على نهر يانغسي.

وكانت المدينة موطن اثنين من شعب المحيط كانا حاسمين في تشكيل آراء الأجانب عن الصين، وخصوصاً في جلب حياة الأسماء المائة القديمة، حياة الناس الصينيين العاديين، إلى انتباه العالم الغربي. وقد قرأت كتاباتهما كليهما وأنا طالب وكلاهما جذبني جذباً أعمق إلى إعجابي بالصين.

كان الأول هو المؤلفة الأمريكية بيرل بك، التي انتقلت إلى هنا وهي طفلة في العام 1892 وكبرت في جيونجيانغ، وهي ابنة مبشرين من الكنيسة المشيخية البروتستانتية. وبيت الآجر الرمادي الذي عاشت فيه مع والديها، أبسالوم وكارولين سايدينستر ايكر، مازال قائماً، ومحفوظاً بوصفه متحفاً بفضل جهود حكومة المدينة. وله منظر رائع يطل إلى الخارج على المدينة إلى يانغسي القوية. تستطيع تقريباً أن تتخيل بيرل سايدينستر ايكر وأخاها يلعبان في الحديقة، ويتحادثان بعيداً عن مربيتهما الصينية. وذهبت بيرل إلى مدرسة داخلية في شنغهاي من 1907 إلى 1909، ورجعت بعدئذ إلى الولايات المتحدة لتدرس في كلية في فيرجينيا، وتتخرج في 1914. ثم عادت بعد ذلك إلى الصين وأمضت معظم العشرين سنة التالية هنا.

كتابة بك عن الصين جلبت البلاد إلى العقل الغربي بطريقة لم تكن قد وصفت بها الصين من قبل. والكتاب الصينيون في العشرينيات من 1920 وفي الثلاثينيات من 1930 قد انغمسوا في السياسات الداخلية للبلاد، محاولين أن يثيروا الصين لتجدد نفسها، ولذلك لم يكونوا مقروئين على نطاق واسع في الغرب. وكثيرون من الكتاب

الغربيين في ذلك الوقت كانوا مازالوا يملكون نغمة استعلائية، استعمارية نحو الصين. أما رواية بك (الأرض الطيبة) بالمقابل، فرسمت صورة متعاطفة إلى حدٍ كبير لمزارع عادي صيني مع أسرته، ورسمت ارتباطهم بالأرض. ومثل كثير من الناس، حين قرأت الرواية لأول مرة، تأثرت بالكرامة التي صورت بها بيرل بك الشعب الصيني، مع نغمة واقعية لم يسبق لي أن قابلتها من قبل في الكتابات الغربية عن الصين. فهنا كانت مؤلفة تملك حباً عميقاً للشعب الصيني. ورواية الأرض الطيبة هي قصة حياة الأسماء المائة القديمة وحبها وآمالها ومخاوفها، ولكنها رواية شاملة أيضاً ربطت حياتهم مع الغربيين العاديين بطريقة جديدة. وباع الكتاب 1.8 مليوناً وثمانية أعشار مليون نسخة في عامه الأول وأكسبت بوك جائزة بوليتزر للرواية في العام 1932. ثم استمرت إلى أن نالت جائزة نوبل للآداب في العام 1938.

والغربي المرموق الآخر المرتبط مع جيونجيانغ هو جيمس هدسون تايلور، وهو إنجليزي جاء إلى المدينة مبشراً قبل أربعين عاماً تقريباً من عائلة بيرل بك. شعر تايلور بدعوة إلهية إلى الصين في عمر مبكر جداً. ووصل إلى شنغهاي في العام 1854، وعمره اثنتان وعشرون سنة، واستمر ليمضي معظم الخمسين سنة التالية هنا، مؤسساً بعثة الصين داخل البلاد في العام 1865، وكان يحدوه الأمل بتنصير داخل الصين بالتبشير. كان تايلور شخصية ثورية في مجتمع تبشيري من العصر الفيكتوري. وقد أحدث ضجة في الخمسينيات من 1850، حين قرر أن لا يسكن في مجمعات الأجانب، مثلما كان يفعل المبشرون حتى تلك الفترة، وأن يسكن بين الشعب الصيني. كان تايلور واحداً من أوائل المبشرين الغربيين في اتخاذ الملابس الصينية، وأصر على كل أعضاء بعثة الصين داخل البلاد أن يفعلوا الشيء نفسه. وهو أيضاً اهتم اهتماماً عميقاً بشأن الأسماء القديمة، وبشأن جلب كل من بلائهم الروحي والمادي لوضعهما أمام ملاحظة الغرب.

وعلى الرغم من أنه كان يُنتقد أحياناً، بوصفه «الذراع الروحية» للمستعمرين، كان العديدون من المبشرين ملتزمين التزاماً عميقاً بالصين وكان لديهم حب عظيم للبلاد. وكان تأثيرهم ضخماً، وليس مجرد تحولات إلى المسيحية. كانوا قوة تقدمية،

تجلب معها التعليم الحديث والخبرة الطبية إلى الصين، وتؤكد الحاجة إلى تعليم البنات، اللواتي كن على وجه العموم محرومات من التعليم في الصين التقليدية.

زوجة تايلور، ماريا، ماتت في جيونجيانغ من مرض الكوليرا في العام 1870، حين كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها. ومات اثنان من أطفاله هناك أيضاً. ولكن تايلور بقي مقيماً في الصين طوال معظم حياته. ومات في العام 1905 في مدينة شانغشا، وجيء بجثمانه بالسفينة نازلاً في النهر إلى جيونجيانغ، ليدفن إلى جانب محبوبته ماريا. وفي أثناء جنون الثورة الثقافية في الستينيات من 1960، حين كان أي أجنبي يُهاجم، فقد جرى تدنيس المقبرة الدولية الصغيرة في جيونجيانغ على أيدي أفراد الحرس الأحمر، وجرى تحطيم شواهد القبور. وبقيت المقبرة الدولية مهملة إلى وقت قريب، حين وجد مسيحيون محليون شاهد قبر تايلور، وأصلحوه، ووضعوه في ضريح صغير بني بشكل خاص له بالقرب من كنيستهم.

وقبل أن أغادر جيونجيانغ، أقوم بزيارة قصيرة للكنيسة الجميلة الصغيرة من القرن التاسع عشر وأطلب من القسيس الشاب راعي الكنيسة، إن كنت أستطيع، أن أرى ضريح تايلور الذي أعيد بناؤه. كان القسيس لطيفاً ومرحباً، وذهب وأحضر المفتاح. ويخبرني أن أناساً عديدين جداً يحضرون إلى الكنيسة في أيام الآحاد لكي يقيموا العديد من الطقوس الدينية.

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، منذ زمن طويل وبعيد جداً، في أول نضرة الشباب وأول نضرة الإيمان، كان أنني قد قرأت سيرة تايلور، وأثرت بي تأثيراً عميقاً. وكنت من قبلُ أدرس إن كنت سأدخل كاهناً في سلك رجال الدين المعينين، وقد جعلتني قراءة الكتاب أفكر في أنني ربما سأكون منغمساً في نوع ما من عمل الكنيسة في الصين. وذهبت للحديث مع قسيس كنيستي في إنجلترا حول ذلك. وهو مازال الشخص الذي أعجب به، خارج أسرتي، أكثر من أي شخص على كوكب الأرض، وبعد أن عرف اهتمامي بالقضايا الدولية، قال لي: «أعتقد أنه قد يثبت أن ذلك النوع من اللوحة صغير قليلاً عليك». أتذكر كلماته بالضبط. لقد فاجأتني، لأنني فكرت دائماً أن الروح الإنسانية كانت لوحة واسعة بقدر السعة التي تستطيع أن تجدها. وفي

النهاية، مع ذلك، ولأسباب عديدة ومتنوعة، ثبت أن تصور قسيسي صحيح، وقد تغير تدفق حياتي تغيراً كاملاً. ولكن، مثل حبك الأول، فأنت لا تنسى قط في الحقيقة بطلك الأول. ولا تنسى قط الطريق التي لم تطرقها. وأنا أنظر دائماً إلى الخلف إلى الفرع من الطريق الذي أقف عليه، وإلى الخيار الذي اخترته، وما كان يحتمل أن يكون. وأنا أقف لوقت طويل جداً في ذلك اليوم الصيفي الحار، أنظر فقط إلى شاهد قبر جيمس هدسون تايلور.

4
الثورة غير المنتهية

يلوح التاريخ معلقاً ثقيلاً فوق الصين، مثل بخار كان في العادة حلواً ولكنه تحول بشكل ما لا يمكن إدراكه إلى بخار سيئ، إنه يتغلغل في كل ركن ويشق طريقه بصمت إلى داخل عقل كل شخص صيني. وأنت تشعر أحياناً أن الصينيين لا يعرفون تماماً ماذا يفعلون بتاريخهم الممتد إلى خمسة آلاف سنة.

ونحن، في العالم الغربي، نحب التاريخ. وإن زيارة إلى وليامزبيرغ الاستعمارية، أو فيلادلفيا، أو كاتدرائية القديس بطرس في لندن، أو المدرج الدائري (الكولوسيوم) في روما هي خبرة إيجابية تملؤنا برضى لا ينكر. وهناك بلا ريب أسباب عديدة، ولكنني أعتقد أن السبب الرئيسي هو ببساطة أننا ربحنا. التاريخ بالنسبة إلى شعب المحيط أدى إلى أهم عنصرين من عناصر مجتمعاتنا: الديمقراطية، والازدهار.

وفي الصين، في المقابل، يبدو أن هناك توتراً كبيراً في أذهان الشعب عن التاريخ. فكل الشعب الصيني يعرف أن تاريخهم كان في العادة رائعاً. فالحضارة الصينية بدأت بالصعود إلى الهيمنة العالمية في القرنين السابع والثامن، ووصلت أوجها في القرن الثاني عشر، في الوقت الذي كانت فيه أوروبة ما زالت في عصور الظلام والعصور الوسطى، ناس كثيرون في الغرب يعرفون عن الاختراعات الأربعة الكبيرة، التي اكتشفتها الصين قبل وقت طويل من الغرب: الورق، والطباعة، وملح البارود، والبوصلة. ولكن الصينيين كانوا مسؤولين أيضاً عن مجموعة كنز كاملة من الاختراعات الأخرى التي وجدت طريقها إلى الحياة الغربية: دفة عمود مؤخرة السفينة، جسر معلق بسلسلة حديد، أساليب الحفر العميق، وأقفال القنوات، والطائرة الورقية، والعرادة، وهي قوس ونشاب على شكل المنجنيق، إذا لم نسم إلا القليل من الاختراعات. في ذلك الوقت كانت الصين أكثر قوة على نحو ضخم، وكانت أغنى، وكانت أكثر تقدماً تقانياً من أوروبة أو أي مكان آخر غيرها. وفي الحقيقة، كان تقدم الصين، والرغبة التي

خلقها هذا التقدم لدى الأوروبيين من أجل الحصول على أنواع الترف التي رأوا أنهم كانوا يفتقرون إليها بوضوح، كان واحداً من الشروط المسبقة لصعود أوروبة. حين وصل المبعوث البريطاني اللورد ماكارتني في العام 1793، كانت الصين هي القوة العظمى في التصدير، فحريرها، وشايها، وخزفها كانت سلعاً مطلوبة في كل أنحاء العالم (وخصوصاً في أوروبة). وكانت القوى الأوروبية التي ستجعلها الثورة الصناعية قريباً قوية، كانت هي، مع ذلك، التي تدفع نقداً وتدفع بالمخدرات مثل الأفيون في مقابل السلع الترفيهية الصينية في ذلك الوقت.

يقول المؤرخون إن المشكلة كانت في أن الصين وصلت إلى الذروة مبكرة جداً. لقد أسست نظاماً كونفوشيوسياً ناجحاً جداً من البيروقراطية تحت إمبراطور مطلق السلطة وهي بالنسبة إلى المجتمع ما قبل الحديث، حققت درجة مدهشة من الاستقرار والازدهار النسبي. ولكن عدد سكان الصين، بحلول أواخر القرن الثامن عشر، كان قد نما إلى درجة كبيرة جداً، وكان بذلك يضع توتراً على الأرض. وكان هناك فساد بيروقراطي كذلك، طبعاً، وإفراط في فرض الضرائب، ومع نهاية القرن الثامن عشر، بدأت الصين تغطس تحت وطأة وزن نجاحها الخاص. وعندئذ، مثلما رأينا، ظهر البرابرة الخطرون، وجاؤوا من المحيط، وفجأة صار كل شيء رآه الشعب الصيني في السابق رائعاً وعلامة ثقافة متفوقة صار رمزاً للتخلف وللإذلال، لأن شعب المحيط قام بما يشبه استعمار الصين. وما زالت تركة هذا التوتر النفسي تلعب في أذهان الشعب الصيني، وهي أحد الأسباب التي تجعلهم مشغولين بجعل بلادهم قوية اليوم. وليس هناك مكان أفضل لترى فيه الطبقات المختلفة من التاريخ الصيني الحديث، ولترى فيه الدليل على انحطاط الصين، من العاصمة القديمة نانجينغ.

لو سقت سيارتك، مثل معظم الناس المدركين، على طول الطريق السريع الجديد اللامع من شنغهاي إلى نانجينغ، لكانت الطريق استغرقت معك ساعات قليلة ولوضعتك على البوابة الشرقية القديمة للمدينة. أما لو كنت مصمماً، على كل حال، على أن تأخذ الطريق البطيء، لرأيت قبور المبشرين، وأخذت لمحة من نهر يانغسي، ولاشتريت إبريق شاي لم تكن بحاجة إليه، ولكن سيتوجب عليك أن تكون قد تحركت في الضواحي الشمالية الشرقية لبعض الوقت قبل أن تصل إلى نانجينغ نفسها.

الطريق 312 من جيونجيانغ قد اتسع اتساعاً كبيراً حين يتصل مع نانجينغ، وهو الآن ليس الطريق البطيء قطعاً ولكنه طريق بسعة أربعة مسارات في كل اتجاه. وأنت تستطيع أن تتهم الحكومة الصينية بأشياء عديدة، ولكن إهمال بناء الطرق ليس واحداً منها.

نانجينغ مدينة ممتعة، على الرغم من كونها معروفة بأنها واحدة من الأفران الثلاثة،من الصين الوسطى، على أساس درجة المائة لحرارة فصول صيفها. وموقعها في معظمه على الضفة الجنوبية من نهر يانغسي، وفيها من السكان أكثر من 6 ملايين نسمة، وكما هو الحال مع شنغهاي، فإن الجو العام هو جو الطاقة، وجو أناس يتحركون وينظرون إلى الأمام. واقتصاد السوق يكسب اليد العليا على الاقتصاد المخطط له هنا أيضاً. الشوارع مزدحمة والمتاجر مليئة بالطعام والملابس، بالألعاب وبالكتب، بالمعدات الإليكترونية وبكل صنف من الهاتف الخليوي الجوال. كثيرون من الناس في نانجينغ برزوا الآن، في خمس وعشرين عاماً قصيرة، من استبداد الفقر، إلى استبداد الاختيار (مع الاعتراف بأنه أكثر قابلية للإدارة).

والمدينة أقل تصنيعاً ثقيلاً من البلدات التي تصطف على الطريق 312 حين يغادر هذا الطريق شنغهاي، مثل كونشان، وفي الشوارع الرئيسية في نانجينغ تصطف الأشجار الجميلة (الشمسية الصينية). جذوعها الفضية تنقسم انقساماً موحداً إلى قسمين، وأغصانها ممتدة فوق مسارات المشى الجانبي من الشارع، موفرة بذلك الظل من شمس صيفية حارقة.

الاسم نانجينغ (وكان يهجى سابقاً نانكنغ) يعني لا شيء أروع من «عاصمة الجنوب «(وبكين تعني «عاصمة الشمال». وطوكيو تسمى دونغجينغ، وهي تعني «عاصمة الشرق». وليس هناك عاصمة غربية). وتستقر المدينة على طبقة فوق طبقة من التاريخ الصيني داخل جدارها المتداعي المبني من القرن الرابع عشر.

وطوال قرون، كانت نانجينغ رمز قوة الصين. كانت عاصمة أسرة مينغ، التي تأسست في العام 1368، وطردت جموع المنغول إلى خارج الصين. وبعد ذلك بقليل،

أنشئ جدار المدينة ذلك، وهو واحد من أطول الجدران التي بنيت في أي زمان في العالم، ويصل إلى عشرين ميلاً في المجموع.

وفي العام 140، انطلق من نانجينغ الأدميرال جونغ هوه في أول رحلاته البحرية غير العادية إلى جنوب شرق آسيا، وجزيرة العرب، وإفريقية. وكانت تلك الرحلة قبل تسعين عاماً تقريباً من إبحار كولومبس متوجهاً إلى أمريكا. وتقول المصادر الصينية إن أسطول جونغ هوه تكون من ثلاث مئة سفينة ومن ثمانية وعشرين ألف رجل تقريباً. والمصادر نفسها تقول إن سفينة قيادته كانت أكثر من أربع مئة قدم طولاً، على الرغم من أن بعض الخبراء يشكّون فيما إذا كان من الممكن بناء مثل هذه السفينة الضخمة في ذلك الوقت. في العام 1492، أخذ كولومبس ثمانية وثمانين رجلاً فقط في سفنه الثلاث الضئيلة إلى العالم الجديد. وكانت سفينة قيادته، سانتا ماريا، أقل من مائة قدم طولاً فقط.

ناقش المؤرخون طويلاً احتمالات رحلة جونغ هوه. ماذا لو كان الصينيون قد استمروا في الاستكشاف؟ ماذا لو كانوا قد صاروا هم شعب المحيط واستمروا ليقهروا أراضي أخرى؟ ولكنهم لم يفعلوا. فالإمبراطور الذي دعم جونغ مات في العام 1424، وتصاعد الاضطراب في الوطن، ووقعت الحملات البحرية في نزاع مع التنافس الداخلي في البلاط. وفي انتكاسة غير عادية، أمر إمبراطور تال بتدمير كل السفن العابرة للمحيط. وانخفض أسطول أسرة مينغ الذي وجد في مطالع القرن الخامس عشر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة إلى لا شيء تقريباً، وهي حركة ثبت في ما بعد أنها قاتلة.

نقدم شريط الأحداث سريعاً إلى الأمام لنصل إلى العام 1842، حين صارت نانجينغ على نحو سريع رمز ضعف الصين. أبحر الأسطول الملكي البريطاني صاعداً في نهر يانغسي، ومع عدم وجود أسطول حديث ليحميها، استسلمت العاصمة الجنوبية بسرعة، مؤذنة بذلك بمجيء ما يدعوه المؤرخون «قرن المذلة» للصين على أيدي القوى الغربية. ودام ذلك القرن حتى انتصار الحزب الشيوعي، في العام 1949. وتحتل نانجينغ مغزى خاصاً في قرن المذلة هذا، بسبب ما حدث هناك طوال سبعة أسابيع

ابتداء من كانون أول/ ديسمبر1937. وكانت واحدة من أشد الحوادث ترويعاً في حرب القرن العشرين وصارت تعرف باسم مجزرة نانجينغ.

مباشرةً بعد أن رفض الصينيون أن يفتحوا بلادهم لشعب المحيط في الثلاثينيات من 1830، كان اليابانيون قد اتخذوا القرار المعاكس تماماً. انطلقوا في إصلاحات كبيرة سياسية، واقتصادية، واجتماعية، دافعين التعليم، والتصنيع والمشاركة النشيطة مع العالم الخارجي. ونظراً إلى أن اليابان كانت قد استعارت ثقافياً في الماضي (ليس أقله من الصين)، فربما كان القرار بالاستعارة ثانية (هذه المرة من الغرب) قراراً ليس إشكاليا جداً. فاليابان لم تر نفسها مركزاً ثقافياً للكون، مثلما رأت الصين نفسها، ولذلك كانت اليابان قادرة على أن تغير جلدها. أما الصين، في الجهة الأخرى، فقد أجبرت على أن تغير روحها.

حتى العام 1895، كان ينظر إلى اليابان بالفعل من قبل كثيرين من المصلحين الصينيين بوصفها مثالاً. في ذلك العام، هزمت اليابان الصين عسكرياً وفرضت شروطاً مهينة على بكين، تماماً مثلما كانت القوى الغربية قد فعلت قبل عقود من ذلك. وكانت الهزيمة صدمة هائلة للصينيين، الذين رأوا (وما زالوا يرون) الثقافة اليابانية بوصفها مشتقة من الثقافة الصينية، وهي لذلك أدنى منها. وكانت الهزيمة واحدة من عدد من الإهانات المذلة التي أقنعت البلاط الصيني أخيراً بعد العام 1900 أن عليه أن يقوم بالإصلاح. ولكن الثوريين الصينيين كانوا في ذلك التاريخ يكسبون الدعم بقدر ما يكسب الإصلاحيون، وفي الواقع أن موجة الإصلاحات بعد العام 1900 أدت لا إلى دولة إمبراطورية مُصلَحة بل إلى الثورة وإطاحة الإمبراطور في العام 1912.

كان قائد الثوريين طبيباً غربي التعليم يسمى سون يات سن، أراد أن تصير الصين جمهورية حديثة، ليبرالية. وقد وضع سون أهدافه في ما دعاه مبادئ الشعب الثلاثة. وتترجم هذه المبادئ في الغالب كما يلي: قومية الشعب (أي، جعل الصين قوية)، ومعيشة الشعب (أي، وضع الطعام في معد الشعب)، وحقوق الشعب (أي، إعطاء الشعب حقوقه). كانت هناك مشكلة واحدة فقط. لا أحد في البلاد امتلك

الخبرة في حكم جمهورية حديثة، ليبرالية. وكما وجد الاتحاد السوفييتي بعد ثمانين عاماً، ووجدت الولايات المتحدة في العراق في العام 2003، فإن إطاحة نظام قديم أسهل بكثير من تأسيس نظام جديد. وهكذا فحين تنازل الإمبراطور عن مسؤولياته، في العام 1912، لم يكن سون وغيره من الثوريين قد امتلك أياً من آليات الحكومة الحديثة ليحكم بها الجمهورية الجديدة. في العام 1916، قامت المناطق، واحدة واحدة، بإعلان الاستقلال عن العاصمة، وبكل بساطة انهارت البلاد.

وهكذا فإن الثورة التي قادها سون يات سن كانت في الحقيقة نصف ثورة فقط. لقد أزيح النظام القديم تماماً، ولكن بناء النظام الجديد فشل. وانحدرت الصين إلى الفوضى، مقدمة لليابان الفقيرة بالموارد فرصة للتوسع في جارتها الغنية بالموارد. وهذا هو بالضبط ما حدث.

وتقول مرشدة الجولة السياحية بلهجة من يقرر الحقيقة، «كان من عادة الجنود اليابانيين أن يجروا منافسات ليروا من كان يستطيع أن يقتل أكبر عدد من المدنيين الصينيين في يوم واحد».

وهي تقف أمام ما يقارب الخمسة عشر سائحاً صينياً، مشيرة إلى حفرة معزولة عن الزوار بلوح من الزجاج. ويرقد في هذه الحفرة، عشرات من الهياكل العظمية الإنسانية، التي ما زالت مغلفة بالتربة التي سقط فيها المواطنون.

وتشير المرشدة، «أترون ذلك الهيكل العظمي هناك، تلك امرأة في متوسط العمر ورصاصة في جمجمتها. وهنا طفل قد تهشمت جمجمته».

يقع تذكار مذبحة نانجينغ في جنوب غرب المدينة، وهو قريب من الضفة الجنوبية من نهر يانغسي. وهو مبني على واحد من المواقع التي نفذ فيها الجنود اليابانيون، في عربدة من العنف، القتل لبعض ضحاياهم. ويعرف الموقع باسم حفرة عشرة آلاف جثة، والموقع لا يترك أي تفاصيل عن أعمال القتل. ويسود الصمت من حشد الزوار الصينيين.

بعد خمسة عشر عاماً من انهيار الحكومة المركزية في الصين ووسط فوضى داخلية مستمرة، غزا اليابانيون منشوريا، أي شمال شرق الصين، في العام 1931، وصار هذا الغزو غزواً كاملاً في العام 1937، مع نزول القوات اليابانية في شنغهاي في ذلك الصيف. وكانت نانجينغ حينها العاصمة الصينية، ولذلك كانت المدينة جائزة خاصة للجنود اليابانيين، الذين شرعوا، حين وصلوها في كانون أول/ ديسمبر، في سبعة أسابيع من القتل، والتعذيب، والاغتصاب. وكان من الصعب إحصاء الضحايا، والعدد قد يكون أقل، ولكن الرقم الذي يحرق كالختم في أذهان كل الشعب الصيني هو 300.000 قتيل على أيدي اليابانيين. والرقم محفور بأرقام ضخمة في ساحة تذكار المذبحة.

والمتحف مزعج لي بشكل خاص، لأنني قبل تسعة شهور فقط، كنت قد زرت اليابان وقابلت عمدة طوكيو سيئ السمعة من الجناح اليميني، شينتارو إشيهارا، الذي أنكر مباشرة في وجهي أن تكون مذبحة نانجينغ قد حدثت في أي زمان.

وبعد الحفرة يأتي معرض يحتوي على صور القوات اليابانية وهي تدفن الضحايا الصينيين أحياء وتستخدم السجناء الصينيين لممارسة التدريب على الطعن بالحربة.

كان هناك رجل في الثلاثين تقريباً يتلكأ في مشيته خلف المجموعة التي تجري قيادتها عبر المعرض. وهو يلبس جاكيتاً، برغم الحر، ويضع نظارات كبيرة، ويقف قريباً من الصور، ينظر بنظرة جانبية قليلاً، ويبدو أنه يبحث تفاصيل كل صورة منها.

وأسأله، «ماذا تظن باليابانيين الآن؟»

وقد يكون الرجل قد تأثر بالمعرض، ولكنه عملي ذرائعي. ويتوقف، ثم يهز كتفيه، ويقول: «طبعاً يجب ألا ننسى الماضي، ولكن من المستحيل أن نتجاهل اليابانيين في هذا العالم المعولم».

«ولكن هل لك أصدقاء يابانيون؟ أتستطيع أن يكون لك أصدقاء يابانيون؟»

ويقول ببطء، «أستطيع أن أكون صديقاً مع ياباني إذا أقر بماضيه. فإذا لم يفعل، فسيكون ذلك صعباً». ويقول لي إن اسمه وو. وهو هنا في عمل من بكين واغتنم الفرصة لزيارة المتحف.

جروح المذبحة ما زالت حية لم تندمل بالنسبة إلى الشعب الصيني لسببين. الأول، هو أن معظم الضحايا كانوا مدنيين. والثاني، هو أن الصينيين لا يعتقدون أن اليابانيين قد اعتذروا اعتذاراً كافياً عما فعلوه. واليابانيون في الحقيقة عبروا عن الأسف والندم عدة مرات، ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا تائبين مثل الألمان بعد الحرب. وحقيقة أن رئيس الوزراء الياباني السابق جونيشيرو كوازومي وسياسيون كبار آخرون قد استمروا في زيارة مزار يوسوكوني في طوكيو، وهو مزار يحتفظ فيه بعدد من مجرمي الحرب من الطبقة أ من الحرب العالمية الثانية، هي حقيقة تجعل الصينيين غاضبين إلى حدود الإصابة بأعراض السكتة. وهم يسألون»، ماذا لو أن القادة الألمان قدموا احتراماتهم على ضريح هتلر؟»

وليس مصادفة، مع ذلك، أن التصاعد في عاطفة معاداة اليابان في الصين تطابقت مع انحدار الشيوعية بوصفها إيديولوجية. إن قوة الربط الإيديولوجي التي أمسكت بالشعب الصيني معاً تحت ماو قد اختفت، وصارت شرعية الحزب الشيوعي شرعية اقتصادية إلى حد كبير. والآن، توفر القومية، وخصوصاً القومية المعادية لليابانيين معاداة ضارة، رابطاً آخر بين الشعب الصيني، وتوفر شرعية جديدة للحكومة، التي تعرض نفسها بوصفها بطل القومية الصينية.

الحزب الشيوعي جيد جداً في ضبط الذاكرة الصينية الرسمية، فهو يشدد على جرائم اليابانيين ضد الشعب الصيني ويقلل من جرائمه الخاصة هو ضد شعبه الخاص. إنه لا يسمح قط بالمظاهرات في الشوارع على قضايا أخرى، ولكنه سمح بالاحتجاجات في ربيع العام 2005 في معارضة لنشر كتاب مدرسي ياباني يقول عنه الصينيون إنه يخفي تاريخ الحرب. والسماح بالغضب على اليابان طريقة مفيدة لتوجيه الإحباط حول القضايا المحلية بعيداً عن الحزب نفسه ونحو عدو خارجي.

ويقول، وهو يقف أمام صورة رهيبة بشكل خاص، «هذا هو السبب الذي يجب من أجله أن تصير الصين قوية، لكيلا يحدث هذا قط مرة أخرى».

حين ترى المعرض، فإنك تستطيع أن تفهم الوسواس المستحوذ على الصينيين في أن يصيروا أقوياء. وتستطيع أيضاً أن تفهم لماذا يشارك كثيرون الحزب الشيوعي.

هناك جبل من المشكلات في الصين الحديثة، والعديد منها سبّبه الحزب الشيوعي نفسه. ولكن بعد كل المذلة، فإن من الواضح أن الحزب، مع كل أخطائه، أكسب الصين احتراماً أكبر بكثير في العالم.

والحوار حول اليابان هو حوار حول المستقبل بقدر ما هو حوار حول الماضي. آسيا لم تمتلك في أي زمان صيناً قوية ويابانا قوية. واليابانيون يتحدثون عن صيرورتهم الآن بلداً «عادياً»، وهم يعدلون دستورهم المسالم الذي وضع بعد الحرب للسماح لهم بقوات عسكرية عاملة تستطيع أن تلعب دوراً أنشط في مهام قوات حفظ السلام الدولية. وحافزهم الرئيسي هو قلقهم طويل الأمد من صعود الصين. والصين، من جانبها، تصر على أن صعودها سيكون سلمياً، ولكنها قلقة على نحو متساو من عودة الروح العسكرية في أرض الشمس المشرقة.

وأقول لو، «بعض الناس في آسيا، وفي الغرب، خائفون من أن الصين يمكن أن تصير مثل اليابان في الثلاثينيات من 1930. وأنت تعرف، أن الصين بعد التصنيع، ومع كل هذا النمو للقومية، والحاجة إلى النفط والموارد الأخرى، يمكن أن تغزو جيرانها مثلما فعلت اليابان تماماً».

ويقول «و» بهدوء، وهو يردد صدى كلمات كل شخص صيني سبق لي في أي زمان أن تحادثت معه في هذه المسألة: «ذلك ليس ممكناً. الشعب الصيني لا يستطيع أن يفعل هذا. الطبع الصيني مختلف اختلافاً كاملاً عن الطبع الياباني. إنهم محاربون، ساموراي. نحن نحب الرحمة. نحن نحب السلام. وإلى جانب ذلك، نحن نعرف ماذا يعني أن تكون محتلاً وأن تُقتَل».

أشكر «و» على المحادثة معي، وأنتقل ببطء نحو المخرج، متوقفاً لأنظر إلى المزيد من الصور في طريقي إلى الخروج. إنها كلها رهيبة بالنسبة إلى الكلمات، ولكنها، بالإضافة إلى أنها تقول الكثير عن اليابان، تقول أيضاً بعض الشيء عن الصين، وخصوصاً في النبرة التي يجلِّيها المتحف ويوصلها. إنها نبرة تسمعها كثيراً في الصين، حين يناقش التاريخ أو يناقش دور البلاد في العالم، وهي نبرة الضحية.

الصين كانت هي الضحية، لا شك في ذلك، وكانت الضحية لمدة طويلة جداً. والقوى الغربية واليابان مذنبون لأنهم متهمون بالعدوان العسكري المزعج. ولكن الصين الآن تتحول إلى قوة أعظم. فهي اقتصادياً، ودبلوماسياً، ودولياً على حافة العظمة. ومع ذلك فهي مازالت تميل إلى التفكير والتحدث مثل ضحية.

أنا لا أعرف ما الذي سيغير ذلك. ماذا يلزم لتغيير هويتكم النفسية بوصفكم أمة، في الوقت الذي كنتم فيه لمدة طويلة جداً أمة خاسرة ثم فجأة تصير أمة رابحة؟ إنه مثل أن تكون مشجعاً متحمساً لفريق بوسطون رد سوكس لكرة القاعدة (البيسبول) حين يربح رد سوكس أخيراً بطولة دوري الأبطال في سلسلة العالم*.

أعود إلى فندقي، وألبس بنطالي القصير وأحذية الجري، وأتوجه صاعداً في التلة نحو ضريح سون يات سن. وهي تلة شديدة الانحدار، وامتحان حقيقي لنظام لياقتي الجديد. وأتمايل في كل الطريق صاعداً من دون توقف، حتى وصلت إلى التوقف خارج المدخل المؤدي إلى الضريح. وتجتمع مجموعة من السياح الصينيين، الذين لم يسبق لهم بوضوح أن رأوا أجنبياً وهو يزفر أنفاسه في الوقت الحقيقي، ليحدقوا بي، وأنا أنحني ويداي على ركبتي.

في حالتي المتعرقة، أقرر ألا أدخل، لأتجول حول المكان، موفراً الدخول إلى اليوم التالي. فأنت تستطيع أن تزور ضريح سون في قمة سلسلة رائعة من الدرجات الحجرية البيضاء اللامعة، المحاطة ببعض الحدائق الجميلة نوعاً ما. وهناك معارض ولوحات تاريخية تناقش ثورة 1912 ومثُلها العليا، ولكن هناك القليل عن إخفاقاتها، وهو ما يبدو حذفاً خطيراً نوعاً ما.

بعد مائة عام تقريباً، ما من أحد قد تعلم دروس ثورة 1912 على ما يبدو (أو، بالنسبة إلى تلك المسألة، دروس ألفي سنةٍ قبلها أو دروس مآسي القرن العشرين التي تبعتها)، أي: أن دولة الحزب الواحد الفاسدة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وأنك إذا

* تأسس فريق بوسطون رد سوكس للعبة القاعدة في العام 1901، واستمر في الازدهار حتى العام 1918، ثم استمر في الخسارة طوال 86 عاماً حتى كسر ذلك الإخفاق في العام 2004. وهي أطول مدة معروفة في تاريخ لعبة القاعدة أو البيسبول. (المترجم)

لم تكن تريد الثورة والانهيار التالي لها، فإن من الأفضل لك أن تبدأ بالتخطيط لبعض التحول السياسي المناسب. وأن الصين الحديثة اليوم ترجع فيها أصداء من الحالة التي كانت في الصين منذ مائة سنة.

وأستدير وأتجه راجعاً إلى الفندق، تاركاً ساقي تدرجان بحرية نزولاً من التلة في الحر، مرجِعاً موجات المجموعات المقهقهة من السياح الصينيين وهم يكافحون صاعدين في التلة. وركضت عابراً إلى جانب ضريح أول إمبراطور من أسرة مينغ (وهو الرجل الذي لم يحاول قط بالتأكيد تأسيس جمهورية)، ثم عبرت مدخل حدائق نانجينغ النباتية. الوقت متأخر بعد العصر، وفي الوقت الذي أدور فيه راجعاً نحو الفندق، أرى في أثناء ذلك بوابة حديدية صغيرة في ظلال جدار المدينة القديمة تقريباً، وأرى لافتة كبيرة إلى جانبه. ولا أتوقف تقريباً، ولكن شيئاً ما حول المكان يبدو غير عادي. ومن البوابة يلتف ممر حول طرف الحديقة مع وجود درابزين يمر إلى جانبه. وقد زُرِعت إلى جانب الممر كل أنواع الأشجار والشجيرات والزهور، بطريقة يستطيع معها شخص أعمى أن يمشي، ممسكاً بالدرابزين، ويشعر بالأوراق والأغصان والبراعم في كل منها. وتقول اللافتة مشجرة العميان.

وأقف، وما زلت ألهث منقطع النفس، أتصبب عرقاً ومتعجباً من مثل هذا التصور الجميل، في الصين، من بين كل الأماكن، التي مازال الناس العجزة يعدون في الغالب أناساً ناقصي الصفات وفائضين عن الحاجة. لم أر أي شيء مثل هذا أبداً، ولا في الولايات المتحدة أو أوروبة أيضاً، ومع ذلك فهنا، حمل أحدهم الجهد والتكلفة ليزرع هذه الحديقة الجميلة، المعانقة للأشجار، المخفية بعيداً على حافة مدينة صينية صاخبة، ومنشغلة، وتقوم بالتحديث، إنها جزيرةُ «توقَّفْ واسترحْ» في بحر «هشِّم واخطف».

5

«شرارة واحدة تستطيع أن تشعل النار بالمروج»

ثلاثة سائقي سيارات أجرة يقفون وهم يدخنون خارج فندقي وينتظرون الذهاب مع مسافر يدفع الأجرة.

وأقول للأول، «أريد أن أذهب إلى الغرب إلى منطقة آنهوي».

«آنهوي؟» وتنزل الكلمة من لسانه إلى الممشى الجانبي، وقد أثقلها احتقار حضري طوال خمسة آلاف سنة.

«نعم، آنهوي».

وهو يكرر الاسم، ثم يستنشق ليدخل النفَس بشكل مسموع من خلال أسنانه، وهو نوع الصوت الذي تتبعه رؤية الدولار ورؤية عدد كبير.

«أين في آنهوي؟»

«هفّي».

ويأخذ الأمر بجدية أقل. عاصمة المنطقة حضرية على الأقل.

«ثماني مئة رينمينبي». مائة دولار تقريباً.

«غال جداً» التعبير المكرور من المسافر الأجنبي.

والسائق التالي في الصف يقول السعر نفسه، وكذلك يفعل السائق الذي بعده، وهكذا أقرر أن أتجاوز الاتحاد الصغير للرجال الثلاثة وأؤشر لأوقف سيارة أجرة من الشارع. كان مستعداً أن يقوم بالرحلة مقابل خمسمائة. أرخص، ولكن هناك شرطاً واحداً. صديقه يجب أن يأتي معه، وفي معظم البلدان، ذلك علم أحمر فوري للمسافر، إشارة تحذير، ولذلك سألته عن السبب.

«لأنها خطرة جداً».

«ولكن لا يوجد قطاع طرق على الطريق. الصين آمنة بشكل كامل!» ويشرح، «أنا لست قلقاً من قطاع الطرق. أنا قلق من الشرطة».

«الشرطة؟»

«نعم. إنهم شريرون. وهم يوقفون أي سيارة من خارج الولاية، ويكون من الأسلم فقط إذا كان يوجد اثنان في السيارة».

ويبدو هذا مقبولاً بشكل غامض، وهكذا، فأنا أوافق، وقد أتعبني التجول والوقوف. وبعد أن انعقدت الصفقة الآن، ننطلق في شوارع نانجينغ الجميلة، المحفوفة على جانبيها بالأشجار، ونسوق السيارة لنأخذ صديقه، ونتوجه نحو نهر يانغسي.

كان الوقت في الصباح البكر. والشمس المشرقة الصاعدة تعانق نانجينغ في حرها وضوئها، وهي تنظر إلى كل العالم وكأن ملكيته تعود إلى الصين وليس إلى عدوها القاتل عبر البحر إلى الشرق. الصباح هو أفضل وقت في الصين، قبل أن تكون كل طبقات المستحيل قد كومت نفسها الواحدة على الأخرى.كل شيء يبدو ممكناً وشمس الصيف الحارة تشرق وتصعد فوق مدينة صينية حديثة.

الطريق 312 يغادر نانجينغ عبر جسر نهر يانغسي الضخم. وكان الجسر قد اكتمل في العام 1968، ومكن القطارات (والسيارات إن كان قد وجد أي منها) أن تسافر في خط مستقيم بين بكين وشنغهاي لأول مرة. والمستوى المنخفض، الذي يحمل السكة الحديدية، كانت دائماً أكثر انشغالاً من الطابق العلوي الذي يحمل السيارات. أما الآن فقد انعكس ذلك، وهناك عنق زجاجة ونحن ننتظر لنصل فوق الجسر.

نعبر نهر يانغسي المنساب العَكِر، الذي انحدر بعيداً أكثر من ألفين وسبع مئة ميل من هضبة التيبت. وضد مجرى النهر أقيم سد على نهر يانغسي من خلال أضخم مشروع في العالم لتوليد الكهرباء، ولكن جريان النهر هنا يبدو خالداً، لا يتغير، يعبر إطاراً فإطار، في حركة بطيئة تقريباً، على بعد مئات الأقدام تحت الجسر المتصاعد. وفي المقابل، يبدو النشاط على الأرض متحركاً في اتجاه سريع إلى الأمام.

ويشرح سائقي، مشيراً إلى موقع البناء الضخم على الضفة الشمالية، «العقارات في جنوب النهر غالية جداً، والجميع يشتري الآن شققاً في شمال النهر».

وينقشع الضباب الدخاني الصناعي انقشاعاً كاملاً حين تغادر نانجينغ خلفك. ويبدأ الهواء بإظهار رائحة مختلفة، إنها مزيج من رائحة السماد العضوي ودخان الخشب. السماء أصفى زرقة، والأوراق أشد خضرة. وفجأة هذه هي الصين الريفية، وبالنسبة إلى الزائر، تكون ألوانها وروائحها وإيقاعاتها مهدئة بعد الفوضى المنظمة للمدن الساحلية ولضواحيها.

ويسير الطريق 312 تماماً جنوب خط غير مرئي يقطع عرضياً عبر الصين الشرقية والوسطى. ويسير الخط تقريباً على طول خط العرض الثالث والثلاثين ويقسم البلاد إلى منطقتين جغرافيتين مختلفتين جداً: مناطق شمال الصين التي تزرع القمح والدُّخن ومناطق الجنوب الرطبة التي تزرع الرز. والمنطقتان مختلفتان اختلافاً لافتاً للانتباه من حيث سقوط المطر، ودرجة الحرارة، والتربة، واستخدام الأرض. ونفس الطريق ينقسم حين يدخل مقاطعة آنهوي، مثل نهر يتدفق في عكس مجراه ضد التيار ليعود إلى روافده. والطريق 312 اللامع الجديد، بمساراته الأربعة قد اجتذب معظم المرور بعيداً عن الطريق القديم، والطريق 312 القديم، وهو يبعد ميلاً واحداً إلى الجنوب، طريق ضيق وأخدود حفرته السيارات، بُني لعصر أسبق، يبدو مرتاحاً لأن كل الشاحنات المتوجهة إلى الغرب هي الآن تسلك الطريق السريع ويجب على الطريق القديم أن يعالج المرور المحلي فقط.

والطريقان من عدة وجوه رمزان للصينَين اللتين تبرزان في كل أنحاء البلاد. فالطريق السريع الجديد، الذي يشق مساره عبر الحقول الخضراء من دون أن يتعارض معها في أي وجه، هو الطريق الذي تريد الحكومة من كل واحد أن يراه ويستخدمه ويتعجب منه. والطريق القديم، وهو الطريق المرتبط ارتباطاً حميمياً مع حياة الفلاحين، هو الطريق الذي يقص القصة الحقيقية للصين الريفية، وهي قصة مختلفة جداً عن التمويه الباهر للبصر في شنغهاي ونانجينغ.

آنهوي هي ما يسميه الصينيون «مقاطعة زراعية كبيرة،» وهي عادة مجرد طريقة مؤدبة عن قولهم إن المكان فقير جداً. وكانت قد سميت أبلاشيا* الصين.

وبعد الانعطاف مباشرة إلى السير على الطريق 312 القديم، نمر على رجل يركب دراجة عادية مع وضع علم أحمر طويل مربوط إلى مقعده، ويرفرف في الهواء وهو يركب، مع وجود لافتة صفراء كبيرة مربوطة إلى دولابه الخلفي. وأطلب من سائقي في سيارة الأجرة أن يتوقف، وأقفز إلى خارج السيارة للتحدث مع الرجل. ويخبرني الرجل أن اسمه هو وانغ يونغكانغ. والعنوان الموجود على لافتته الصفراء الكبيرة تعني: رحلة عبر الصين ضد الفساد. ويقول انه استثمر مائة ألف دولار أمريكي في فندق في جنوب الصين ولكنه خدع في صفقة من طرف مسؤولين حكوميين فاسدين. والفندق لم يبن قط. ويقول، ومع عدم وجود طريقة لاستعادة نقوده، لا يوجد أي شيء يستطيع أن يفعله إلا الاحتجاج بهذه الطريقة. وانغ يسافر على الدراجة من نفس الساحل الجنوبي للصين إلى بكين، وتصادف أن مسارينا تقاطعا. ويقول إن الناس يدعمونه في أي مكان يذهب إليه وغالباً ما يوقفونه ليقدموا له التشجيع.

وهو يقول، «كل أسرة مثل غيرها. إنها تنطلق انطلاقة جيدة ولكنها بعدئذٍ تصير أسرة فاسدة. ويعاني منها الجميع. وذلك هو السبب الذي نحتاج من أجله إلى الإصلاح السياسي».

«وإلاّ؟» قلتها وأنا أرفع حاجبي، مندهشاً من صراحته.

«وإلاّ، فإن الحزب والبلاد سوف ينهاران في عشر سنوات تقريباً». قالها وهو يهز إصبعه جيئة وذهاباً نحوي ليشدد على نقطته التي أبداها.

ويقول، «في الغرب، كما تعرف، يمتلك الناس معياراً أخلاقياً موجوداً في داخلهم. إنه مبني فيهم. الشعب الصيني لا يملك ذلك المعيار الأخلاقي داخله. فإذا لم يكن يوجد أي شيء خارجي يوقفهم، فهم يفعلون تماماً ما يريدونه لأنفسهم، بصرف النظر عن الصواب والخطأ».

* منطقة في الولايات المتحدة اشتهرت بالزراعة ، والتعدين ، والأخشاب، ولكنها فقيرة وبقيت معزولة حتى العام 1964 حين شكل أحد رؤساء الولايات المتحدة هيئة خاصة لتطوير الولايات الواقعة في أبلاشيا،(المترجم).

هذا شيء يشعر به الأجانب في العالم في جو الغرب النائي للصين في زمن الازدهار، على الرغم من أنهم حريصون على التأكيد لمن يقولون ما يشعرون به. ونقف ونتبادل أطراف الحديث لمدة أطول. ثم يركب وانغ دراجته، وأركب أنا في السيارة، ونتوجه كلانا نازلين في الطريق.

وانغ يلعب دوراً معيناً في التاريخ الصيني. فعلى مر العصور، كان هناك أناس أمناء، لم يكونوا يرغبون في اتباع طرق الفساد التي تنحدر إليها كل أسرة في نهاية المطاف. إنهم يحاولون الوقوف ضد الفساد، وهم حتماً يخسرون. إنهم لا يغيرون ثقافة الصين السياسية، هم ينسحقون بها. إن إحدى العلامات في كل التاريخ الصيني على أن نهاية أسرة ما قادمة، أو أن ثورة مختمرة وشيكة، كانت دائماً وجود المسؤولين الأمناء أو المواطنين الذين يؤدون احتجاجات شجاعة ولكنها بلا جدوى ضد الدولة. والعلامة الأخرى كانت دائماً هي الفلاحون الغِضاب.

في العام 1926، غادر فلاح غاضب اسمه ماو زيدونغ المدينة المركزية من ووهان وسافر راجعاً إلى مقاطعته الوطن من هونان، في جنوب آنهوي. وكان قد ولد لعائلة فلاحين غنية غنى متوسطاً في العام 1893، ماو (الذي كان اسمه سابقاً يهجأ ماو تسي تونغ) رأى محاولات الصين لإقامة حكومة جمهورية تصل إلى لا شيء وشهد انهيار البلاد بعد ثورة 1912. وأغضبته حالة الصين المستمرة بوصفها رجل آسيا الضعيف. ونظر ماو غرباً إلى روسيا، وفي العام 1921، صار واحداً من الأعضاء المؤسسين للحزب الشيوعي الصيني، ولكنه بعدئذٍ رأى الحزب يصارع ليكسب الدعم من شنغهاي ومن المدن الأخرى، وذلك في جزء منه بسبب وجود قلة من المواطنين الحضريين من البروليتاريا أو المسحوقين لحشدهم، وفي جزء آخر بسبب أن المصالح الصينية والأجنبية الراسخة لم تكن ترغب في أن ترى نشاط عامة الناس في شوارعهم وفي مصانعهم. وفي أثناء سفره في أنحاء هونان الريفية في مطلع العام 1927، رأي ماو الظروف البائسة الموروثة جيلاً بعد جيل من الفلاحين الصينيين، وأدت به إلى أن يعيد التفكير بشكل كامل بالكيفية التي يطلق فيها شرارة الثورة الشيوعية.

وأدرك ماو أن الشيوعية سوف تعمل في الصين إذا هو أخذها إلى الفلاحين فقط. حين عاد من تلك الزيارة، كتب تقريراً تنبّئياً، صارت أجزاء منه أسطورة في تاريخ الشيوعية الصينية:

> في غضون وقت قصير، سوف يهب مئات الملايين في الصين الوسطى، والجنوبية والشمالية بالانفجار الغاضب لبركان. وما من قوة، مهما تكن قوية، تستطيع أن نكبحهم. وسوف يكسرون كل القيود التي تقيدهم ويندفعون نحو طريق التحرير.

أخذ ماو بالماركسية وكيّفها مع الواقع الحقيقي الصيني. كان هناك القليل من العمال، ولكن كان هناك الكثيرون من الفلاحين. كانوا مضطهدين من ملاك الأرض من الطبقات الحاكمة القديمة، وكانوا جياعاً ومضطهدين وناضجين للثورة. وكتب ماو في العام 1930: «شرارة واحدة تستطيع أن تشعل النار بالمروج».

لم تكن هي الماركسية الكلاسيكية من ثورة الحضر، ولكنها عملت ونجحت. فمن العام 1927 وإلى اليوم الذي وقف فيه في ميدان تيانانمين في العام 1949 وأعلن تأسيس الصين الشيوعية،كان كل شيء عن الفلاحين. وفي أثناء الثلاثينيات من 1930 والأربعينيات من 1940، وحين كان الشيوعيون يقاتلون الغزاة اليابانيين أيضاً، صار الفلاحون هم قاعدة الدعم للثورة.

بعد العام 1949، سارت ثورة ماو الريفية سيراً حسناً طوال بضع سنوات. أطيح بملاك الأرض، وسط ابتهاج عام. ولكن الأرض لم تُعط قط للفلاحين. والحزب الشيوعي، الذي كان يصر على أنه مثّل الشعب، صار هو المالك الجديد للأرض، حاشداً الفلاحين في كوميونات.

بعدئذٍ، في أواخر الخمسينيات من 1950، أطلق ماو مخططه الأحمق لتصنيع الصين بسرعة البرق في الحركة المعروفة باسم القفزة العظيمة إلى الأمام. بضعة وثلاثون مليون نسمة (30 مليون إنسان!) يعتقد أنهم ماتوا ببساطة لأن كل واحد قد حُشد ليعمل في مشروعات البنية التحتية الضخمة وإنتاج الفولاذ وهكذا كان

الفلاحون غير قادرين على جمع المحصول. ومعظم الفولاذ المنتج كان من نوعية سيئة إلى درجة كان معها غير قابل للاستعمال. ثم أطلق ماو، في العام 1966 الثورة الثقافية العظيمة للبروليتاريا، وفيها شجع هو الشباب ليثوروا ويهاجموا كبار السن، والأجانب، والبورجوازية. والمزيد من ملايين الأنفس أزهقت، ولكن أهمية الفلاحين بوصفهم نماذج للولاء وللتضحية بالنفس حوفظ عليها طوال الثورة، وأُرسل ملايين المثقفين الحضريين إلى الريف ليتعلموا منه.

والآن، مع ذلك، بعد أكثر من ثلاثين سنة من إصلاحات السوق منذ موت ماو، في العام 1976، دارت دائرة التاريخ الصيني مرة ثانية. ففي التسعينيات من 1990، بدأ الحزب الشيوعي يتخلى عن المزارعين ويتحالف بنفسه مع الطبقات الجديدة التي تملك المال، ومع رجال الاستثمار ورجال الأعمال، مع النخبة الحضرية، التي يكون فيها المزارعون مجرد علف مهاجر لمصانعها. والآن، في القرن الجديد، بلغ الأمر بالناس حتى سائقي سيارات الأجرة الحضريين إلى النظر نظرة دونية إلى الريفيين مرة أخرى.

تعطي بلدة ووغانغ شعوراً بأنها فارغة، وكأن سكانها قد سمعوا ولابد بأننا قادمون فهربوا قبل بضع ساعات فقط، تاركين كل شيء في مكانه ولكن غير معتنى به. إنها بلدة نموذجية على طول الطريق القديم 312. إلى جانب الطريق يوجد لافتة باهتة مدهونة على جدار في العصر الماوي وتقرأ فيها: اخدموا الشعب. وفوق الشارع، توجد راية لامعة حمراء معلقة وعليها حروف بيضاء تقول: على وجه الدقة خذوا بالشدة والضبط الأطباء المزيفين. وتهب القمامة وتتحرك على طول الممشى الجانبي حين يتعثر الطريق داخلاً من خلال مركز البلدة وخارجاً منها مرة ثانية إلى الريف.

هنا، كما في الكثير من الصين الريفية، هناك بيوت جديدة مثلما هناك بيوت قديمة من طين ومن آجر، ومحلات الإقامة الجديدة مبنية في الغالب بتمويلات من أقارب يعملون في المدن. وهي عادة مبانٍ من دورين مستقبليَّين قليلاً، وهي مغطاة دائماً تقريباً من القمة إلى القاعدة بالآجر الأبيض، وأحياناً بنوافذ ملونة تلويناً خفيفاً بالأزرق للتباهي، وهذه المساكن تقف ظاهرة مثل سفن فضائية وسط الألوان الخضراء

والبنية من الصين الريفية، معلنة رفاهية وجدت حديثاً وانقطاعاً رمزياً جداً يفصلها عن العمارة الريفية التقليدية. وإيماءتها الوحيدة إلى التقاليد الصينية هي وجود تنِّينين اثنين يواجه أحدهما الآخر على ذروة كل سطح، وحدبتا جسميهما الطويلين ترتفع وتنخفض مثل زوج من الوحوش الصينية من نوع وحش بحيرة لوخ نيس.

ويقول سائقي: «إذا لم تبن بيتاً جديداً، فلن تستطيع أن تجد زوجة».

وفيما وراء ووغانغ تماماً، أطلب من السائق أن يتوقف حين أرى رجلاً يربط جاموس ماء إلى محراث على بعد بضعة ياردات عن الطريق.

اسمه «وو فاليانغ» وعمره ستة وستون عاماً وعاش هنا كل حياته. ويبدو جسمه المشدود، والمجدول أصغر من عمره بعشرين عاماً، وهو تراث عقود في الحقل. ويظهر وجهه المتغضن، والمرهق أكبر من عمره بعشرين عاماً، وهو تراث كفاحه اليومي ليجعل الدخل والمصروفات يتقابلان. وأمشي معه صعوداً ونزولاً نتحادث وهو يحرث حقله. لا تهتم بالثورة الصناعية، فهذا المنظر لم يتغير منذ قرون. وقميص وو مهتريء ومشبّع بالعرق. ويداه سميكتان خشنتان. حين سيتوجب عليه أن يفكر بالتقاعد سيكون مازال عليه أن يخرج إلى أرضه البالغة نصف فدان ويزرع ويجمع محصول الفاصولياء الصفراء.

أشفق على الفلاحين الصينيين الفقراء الذين عانوا طويلاً. فهذه الثورة كانت حسب ما يفترض ثورتهم. وهم يشكلون غالبية السكان الصينيين (حوالي 750 مليون نسمة)، وهم الذين عانوا معاناة أطول، وعلى نحو أعمق من أي واحد. لقد وعدوا بالكثير جداً. وكان يفترض أن يكونوا محررين بفضل هذه التجربة الكبيرة في المساواة الاجتماعية التي دعيت الشيوعية، ولكنهم انتهوا عائدين إلى قاع الكوم. إنها خيانة من نسب مذهلة، مع الأخذ بالاعتبار جذور الثورة الشيوعية وأهدافها الأصلية، خيانة كان يمكن أن تنتهي بأن يكون لها عواقب ضخمة للحزب الشيوعي.

ويقول وو: «الحياة هنا فقيرة، فأنت لا تستطيع أن تكسب المعيشة من الأرض هذه الأيام. وكلا ولدَيّ وزوجتاهما ذهبوا إلى المدينة. وتُرِكت هنا لأعتني بأحفادي». واحد منهم في عمر يناهز السابعة، يقف بالقرب منا، يراقب جده وهو يتحدث إلي.

وو فاليانغ يسوط جاموس الماء وهو يمشي به صعوداً ونزولاً في الحقل ويقول: إن هناك مسألتين هما أكثر ما يميز خيانة الفلاحين على أيدي الحزب: فرض الضرائب الساحقة واغتصاب الأرض بالقوة على أيدي المسؤولين الرسميين المحليين. فلأن الصين تتحضر بسرعة كبيرة تتوسع مدنها توسعاً سريعاً. ولكي تتوسع المدن، فإنها تحتاج إلى الأرض. الفلاحون يستأجرون الأرض على أساس طويل الأمد، ولكن كل الأرض الصينية من الناحية الرسمية تعود ملكيتها للدولة. وهكذا، فإن المسؤولين المحليين، بوصفهم ممثلين للدولة، يملكون القول النهائي فيما يحدث للأرض ضمن سلطتهم القضائية. وهم، الآن يأخذون الأرض بالقوة من الفلاحين ويبيعونها إلى المطوِّرين. ومسؤولو الحزب الذين جاؤوا إلى السلطة بوعد بإعطاء الفلاحين الأرض يأخذون الأرض من الفلاحين من أجل مكاسبهم الشخصية الخاصة بهم.

الحكومة المركزية معارضة للممارسة، وتعرف أنها تخلق الغضب نحو الحزب في صفوف الشعب الريفي. ولكن من دون أي زواجر وضوابط في النظام، يكون من الصعب عليهم أن يلجموا المسؤولين المحليين النهَّابين. وليس من دون سبب سبق للصينيين أن قالوا: إن «التنين القوي ليس نداً للأفعى المحلية».وتطلق بكين من حين إلى آخر حملات لمحاولة إقناع المسؤولين ليكونوا أمناء، وهي تختار أحياناً المسؤولين الفاسدين على وجه الخصوص للمعاقبة، ولكن فيما عدا ذلك، يستمر اغتصاب الأرض في ضواحي كل مدينة في الصين تقريباً.

يُعرض على المزارعين تعويض عن أرضهم، ولكنه عادة تحت معدلات السوق إلى حدٍ بعيد، وإذا اعترضوا، فإن المسؤولين المحليين والمطوِرين يستأجرون سفاحين لضرب المزارعين وإرغامهم على ترك الأرض. في العام 2005، سلّم نشيط ريفي مراسلَ واشنطن بوست في بكين شريطاً مصوراً أظهر معركة عنيفة بين مجموعة من الفلاحين وعصابة من السفاحين.

وظهر الفيلم وكأنه معركة من ميدان المعارك في القرون الوسطى، وكلا الطرفين المتقاتلين يستخدم المجاريف، والمشاعيب، والأدوات الأخرى في المزرعة. لقد قاوم الفلاحون الأوامر المحلية لتسليم أرضهم إلى معمل للطاقة تملكه

الدولة، واتهموا المعمل باستئجار عصابة السفاحين لإجلائهم عن الأرض. وقد قتل عدد من الناس في المعركة.

ولكن أكبر مشكلة من مشكلات وو فاليانغ، ليست اغتصاب الأرض بل الضرائب. ضريبة طرق، وضريبة سكان، وضريبة حبوب، وكل نوع من الضريبة، تطبق تطبيقاً جامداً وتنفذ بلا رحمة. إن إرخاء الضوابط المباشرة من بكين على المقاطعات منذ مطالع التسعينيات من 1990 عنى تقديم إعانات نقدية أقل من الحكومة المركزية إلى المسؤولين المحليين، وهكذا فإنهم إذا لم يستطيعوا تكملة دخلهم من خلال اغتصاب الأرض، فهم يفعلون ذلك بطريقة معروفة على مر الزمان وهي انتزاع المال من الفلاحين بفرض المزيد من الضرائب.

ومن حين إلى آخر هنا في آنهوي، ينتفض الفلاحون الذين لم يغادروا متوجهين إلى المدن. وإحصاءات الحزب الشيوعي الخاصة تقر أنه كان هناك أكثر من ثمانين ألف حادثة من الاضطراب الريفي في العام 2005، وهو أربعة أضعاف الرقم المروي قبل عشر سنوات. فمن قلة من الجدّات اللواتي طلبن دفع رواتب تقاعدهن إلى عشرات الآلاف من الناس المحتجين على بعض مشروعات الإنشاء الضخمة المقامة على أراضيهم، وهي احتجاجات تحدث في جميع أنحاء الصين. وفي العام 2006، نقص العدد لأول مرة في مدة طويلة، وهو ما يوحي بفرض تحديدات على المظاهرات الريفية، لأن قادة الحزب صاروا أكثر فأكثر قلقاً بخصوص الحالة المتفجرة المحتملة من السخط في الأرياف.

يأخذ وو فاليانغ استراحة من عمله، ويستند على محراثه، ويشير بإصبع وسخة نحو بلدة قريبة خلف ووغانغ. ويقول: إنه في العام الماضي سارت مجموعة من المزارعين إلى مكتب رئيس البلدية، مطالبين بتخفيض الضرائب المفروضة عليهم. والحكومة، وقد خافت من احتمال قيام الاضطراب، استخدمت المدخل المعتاد من الجزرة والعصا مع المحتجين. ترضخ لبعض الطلبات ولكنها تعتقل قادة الجماعة بعد أن تكون الحالة قد هدأت. ويقول: «مازال القادة في السجن».

وأعلنت بكين، وهي واعية أن انتزاع ضرائب عالية كان قد بدأ يسبب مشكلات كبيرة في الأرياف، أعلنت مع الكثير من الجعجعة أن الضريبة الزراعية المكروهة، وهي المال الذي يدفعه الفلاحون إلى الحكومة المركزية بالاستناد إلى مساحة الأرض التي يشغلونها وعدد الأفراد في عائلاتهم، سوف تلغى. وكانت هذه السياسة توضع قيد التنفيذ قبل قليل حين كنت أقوم برحلتي على طول الطريق 312، وكان بعض الفلاحين الذين تحدثت إليهم مسرورين جداً بها. ويعترف وو فاليانغ أنه كان هناك تخفيض في الضرائب، ولكنه يمسح العرق عن وجهه المتغضن وصرف السياسية من ذهنه بنقرة من يده البنية الخشنة. ويقول: «تستطيع أن تخفض بعض الضرائب، ولكن سيكون هناك دائماً ضرائب أخرى لتدفعها. ليس هناك فترة تأجيل».

ويستمر القول بسخرية، «ونحن، الشعب، الأسماء المائة القديمة، لا نحصل على منافع من الحزب الشيوعي. إنه لا يأتي بشيء طيب، وإن أنت شكوت إلى المسؤولين المحليين، فسوف يحبسونك».

بالنسبة إلى الأمريكيين، فإن الكثير عن بلادهم ملخص في السطر الأول من الدستور: «نحن الشعب... نأمر فعلاً بهذا الدستور للولايات المتحدة الأمريكية ونؤسسه». «نحن الشعب» هي ما تدور حوله أمريكا. فعلى الرغم من كل مسألة الديمقراطية القذرة المخلة بالنظام، المشبعة بالمال، فإن السلطة في الولايات المتحدة موجودة في أيدي الشعب. ويمتلك الصينيون مكافئاً مباشراً من «نحن الشعب». وأنت تسمعها في كل يوم من حياتك في الصين. فهم يقولون: «نحن، الأسماء المائة القديمة». ولكن «نحن، الأسماء المائة القديمة» لا يتبعها بيانات فخمة من تمكين الفرد، إنها متبوعة عادة بالتفجع من العجز الذي يعبر عنه وو فاليانغ.

إن محنة أسرة وو هي محنة نموذجية للأسرة الصينية الريفية في مطلع القرن الحادي والعشرين. لقد كان هناك انهيار كامل تقريباً في الإعانات المالية الحكومية للخدمات الأساسية في الصين الريفية. ويقول وو: «إذا أردت أن تعلم أطفالك، وجب عليك أن تدفع، وإذا احتجت إلى الرعاية الصحية، وجب عليك أن تدفع أيضاً».

والحزب الشيوعي الآن لا يعطي أي شيء تقريباً إلى الشعب الذي يزعم أنه يمثله. الحزب يأخذ فقط. من كلٍ حسب قدرته، وإلى كل... لاشيء. وفيما يتعلق بالرفاهية الاجتماعية، فمن الإنصاف أن نقول إن المجتمع الصيني اليوم أقل اشتراكية من أوروبة.

الإصلاحات الأولى في الثمانينيات من 1980، التي سمحت لوو فاليانغ أن يبيع بعضاً من محصوله في السوق المفتوح، رفعت الفقر قليلاً، ودام ذلك التحسن إلى التسعينيات من 1990. وأما في السنوات الحديثة، فهو يقول، إن الحالة صارت أسوأ بكثير لأن الأسعار التي تقدم لمحصوله قد ركدت في حين أن تكلفة المعيشة (وخصوصاً التعليم والرعاية الصحية الأساسية) ارتفعت كالصاروخ إلى عنان السماء. تقرير عمل ماو للعام 1927، الذي تنبأ فيه أن الفلاحين الصينيين سوف يهبون مثل إعصار، يبدأ في الظهور بأنه ذو علاقة هنا بشكل متزايد في الوقت الذي تدور فيه دائرة التاريخ الصيني مرة أخرى.

بالعودة إلى العام 1989، نجد أن أحد الأسباب التي جعلت مظاهرات ميدان تيانانمين تخفق في الانتشار إلى ما وراء المدن، وتخفق كذلك في إحداث مشكلات كبيرة للحزب الشيوعي، هو أن الفلاحين لم يكونوا غِضاباً. كانت الاحتجاجات حركة حضرية، حركة من المثقفين الذين التحق بهم بعض العمال. وكان الفلاحون قد برزوا من حطام الماوية الريفية في فقر يبعث على القنوط، وفي العام 1989 كانوا مازالوا يتقدمون إلى مستوى أعلى. والآن، هم غاضبون ثانية، مع ذلك، والحزب يعرف أن مئات الملايين من الفلاحين الغاضبين هي مشكلة أكثر جدية من بضعة آلاف من المثقفين الحضريين. وبتخفيض الحزب للضرائب وبمحاولته أن يكبح المسؤولين المحليين الفاسدين، يقوم الحزب بعمل كل شيء يستطيعه لمنع قيام نفس النوع من الثورة الريفية التي سبق للحزب أن قادها في الماضي.

هناك الآن مسألتان رئيسيتان للحزب الشيوعي في الريف. الأولى، هل يستطيع أن يحسن نصيب الفلاحين قبل أن يصيروا غاضبين جداً؟ بعد أن أدركت بكين إلى أي مدى قد تقدم غضبهم نحو الحزب الشيوعي، أعلنت بكين في العام 2006 الإصلاح

الريفي هدفاً كبيراً لبرنامجها الاقتصادي الجديد لخمس سنوات. فبالإضافة إلى إلغاء الضريبة الزراعية المكروهة، وعَد الحزب بتعليم مجاني في المدارس العامة لأطفال الريف وبنظام تأمين ريفي جديد لمساعدة إعانة الرعاية الطبية لأولئك الذين هم أفقر من أن يدفعوا لرؤية طبيب.

والثانية، هل يستطيع الحزب أن يمنع المزارعين الغاضبين من تنظيم أنفسهم والارتباط مع عناصر أخرى محبطة من المجتمع، مثل المثقفين الحضر الساخطين المتمردين وعمال المصانع الذين فقدوا عملهم؟ فهذا النوع من التعاون قد بدأ من قبل. لقد سبق لي أن تحدثت إلى مثقفين ومحامين يتجهون خارجين إلى الأرياف ليقدموا النصيحة إلى المزارعين في قضايا منازعاتهم بشأن الأرض والضرائب، ولمحاولة استخدام القانون لكسب ملجأ للأسماء المائة القديمة. الدولة مازالت قوية، ولكن العشب في المروج جاف، جاف جداً.

وأسأل وو، وأنا أشير إلى حفيده: «ماذا سيفعل؟ أي نوع من الصين سيعيش فيها؟»

ويجيب وو: «سوف يذهب إلى المدينة، طبعاً، ليعمل وليكسب النقود».

«ولا يعود إلى هنا قط».

«هذا سيكون دائما وطن أجداده. ولكن لا يوجد مستقبل هنا».

بالنسبة إلى الصين الريفية، هناك وسيلة واحدة حقيقية فقط للتمكين، ومصدر واحد للأمل، وذلك هو الهرب. لديهم مخرج، على طول الطريق 312 إلى الساحل، أو بشكل متزايد إلى المدن في داخل البلاد التي تبدأ بالازدهار.

قبل عدة أيام، قرأت في نسختي من كتاب جون شتاينبك (عناقيد الغضب) التي صارت مهترئة لكثرة ما طويت صفحات الكتاب لتكون علامة على موضع معين، قرأت مقطعاً عن منطقة دست باول في الولايات المتحدة في الغرب الأوسط في الثلاثينيات من 1930: «نصف مليون نسمة يتحركون على البلاد، ومليون آخر، يتململون، جاهزين للتحرك ـ عشرة ملايين أخرى، يشعرون بأول توتر أعصاب مفرط». وتلك الأرقام أصغر أيضا من أن تصف مقاطعة آنهوي الوحيدة، وجيشها من المهاجرين

المتحركين، أو الذين يعدون للحركة، إلى المدن. هناك سبع وعشرون مقاطعة و«مناطق حكم ذاتي» في الصين، ويجب عليك أن تضرب أرقام شتاينبك لأوكلاهوما بعشرين أو بثلاثين أو بخمسين ضعفاً لتصل إلى عدد الذي هم في حالة حركة في الصين. وبعض القضايا في آنهوي مختلفة، طبعاً، عن قضايا الثلاثينيات من 1930 في أوكلاهوما، ولكن ما مثله الطريق 66 بالنسبة إلى المهاجرين من أوكلاهوما سوف يظهر مألوفاً بقوة للفلاحين الذين يسكنون إلى جانب الطريق 312.

> 66 هو طريق لشعب في حالة هروب، لاجئيون من الغبار والملكية المنكمشة، من غزو الصحراء البطيء شمالاً، من الرياح المتلوية التي صاعدة من تكساس، من الفيضانات التي لا تجلب أي ثراء للأرض وتسرق ما يوجد فيها من الثراء القليل. من كل هذه الأشياء الناس في حالة هروب، وهم يأتون إلى الطريق 66 من الطرق الجانبية الرافدة، ومن مسارات العربات التي تجرها الخيول ومن طرق الريف المخددة. 66 هو الطريق الأم، وطريق الهروب.

وو فاليانغ كبير في السن. ولن يغادر قريته الوطن الآن قط. لقد رأى كل شيء: الحرب الأهلية والفوضى في الأربعينيات من 1940، حين كان فتى، والأمل بالإصلاح الشيوعي للأرض في الخمسينيات من 1950، واندفع مع الملكية المشتركة، وآمال الإصلاح الاقتصادي في الثمانينيات من 1980، التي دمرها الفساد والركود في مطلع القرن الحادي والعشرين. وحياته تعكس كالمرآة اضطرابات الصين في القرن العشرين، التي جاءت لتستقر بعد دورة ستين عاماً، من وجودها، في المكان الذي بدأت فيه. الناس لا يموتون من الجوع، وهذا ما لا يجب أن ينسى، ولكن الحياة فلاحاً صينياً هي كفاح مستمر.

حفيد وو الذي يبلغ السابعة من العمر يقف إلى جانبه، يعبث بقطعة حبل قصيرة. حياة جده كلها كانت قد قُرِرت له من طرف الحزب. والآن، في وسط العديد من مشكلات الصين الريفية، وربما لأول مرة في تاريخ الصين، يجري فك رباط أطفال الفلاح في الحقول في كل أنحاء الصين من أوطان أجدادهم، ومن سيطرة الدولة على

أساس يومي، ويستطيعون أن يقرروا لأنفسهم ماذا يعملون حين يكبرون. الخيارات ليست كبيرة، والظروف الموجودة أساسية، ولكنها شيء مرموق. وربما يكون ذلك هو الثورة الحقيقية الجديدة، على الرغم من أنها ضئيلة وبطيئة.

وحين أتوجه عائداً إلى السيارة، يبدأ قرص ضخم أحمر من الشمس يغرب، جاراً اليوم خلفه. ويتبع الفتى على بُعد مسافة، وبعد أن أدخل في السيارة نسوق مبتعدين، وأنظر إلى الخارج من النافذة الخلفية. وو فاليانغ رجع إلى حراثة حقله. ولكن الصبي واقف، بلا حركة، يراقب ونحن نسوق مبتعدين على طول الطريق المغبر.